

الباب الثاني

الآراء الكلامية عند الأمير شكيب أرسلان

الفصل الأول

١ - قضية الخلافة الإسلامية

في فكر الأمير شكيب أرسلان

- تمهيد
- حكم الخلافة في الإسلام
- معنى الخلافة
- قضية فصل الدين عن السياسة
- دفاع الأمير شكيب أرسلان عن الشريعة الإسلامية
- رمي الشرع الإسلامي بالجمود لتعلقه بالمعاد والمعاش
- الإستشراق والشريعة
- حزب المتفرنجين
- علاقة الدين بالسياسة في حضارة الغرب
- دفاع الأمير شكيب عن استقلال الشرع الإسلامي وأصالته منبعه
- الإجتهد لا ينفي الطابع الإسلامي للتشريع
- صلاحية الشرع الإسلامي لكل زمان ومكان وواجب علماء المسلمين
- اشتراط القرشية في الخلافة
- تعقيب

الفصل الأول

١ - قضية الخلافة الإسلامية في فكر الأمير شكيب أرسلان :

- تمهيد

إن أهم القضايا التي شغلت فكر الأمير شكيب أرسلان قضية الخلافة الإسلامية ، وعلى الرغم أن مسألة الإمامة أو الخلافة ليس من أصول علم الكلام وإنما هي من فروع « ويتحدث عنها المتكلمون »^(١) في علم خاص بهذه الأصول جريا على عادة المؤلفين في علم الكلام»^(٢) إلا أنها استحققت أن تفقز في العصر الحديث إلى صدر القضايا التي شغلت علماء الإسلام ومفكره ، فقد «تمخضت الحرب العالمية الأولى وما ترتب عليها وتلاها من تقلبات عن أخطر ظاهرة في حياة الإسلام والمسلمين ، فللمرة الأولى في حياتهم سقطت الخلافة ، بعد أن اتصلت حلقاتها خلال ثلاثة عشر قرناً ونصف القرن . تنقل مركز الخلافة فيها بين عواصم البلاد الإسلامية المختلفة ، ولكنه ظل في كل الأحوال رمزاً للرابطة التي تجمع بين المسلمين في شتى بقاع الأرض ، وظلت الدولة القائمة بأمر الخلافة مكلفة في نظر المسلمين برعاية شئونهم وإسعاف منكوبيهم والأخذ بيد ضعيفهم وإقامة شريعة دينهم وشعائره»^(٣)

١ - تناول (الإمامة) علماء العقيدة على إعتبار أنها مبحث من مباحثها ، مثلما فعل القاضي أبو بكر محمد بن الباقلاتي (المتوفى عام ٤٠٣هـ) في كتابه «التصديق في الرد على الملحدة المعطلة والرافضة والخوارج والمعزولة» ، وأبو منصور عبد القاهر البغدادي (المتوفى عام ٤٢٩هـ) في كتاب «أصول الدين» ، وإمام الحرمين عبد الملك الجويني (المتوفى عام ٤٧٨هـ) في كتابه «الإرشاد إلى فواع الأدلة في أصول الاعتقاد» ، وأبو حامد الغزالي (المتوفى عام ٥٠٥هـ) في كتابه «فضائح الباطنية» و «الإقتصاد في الاعتقاد» وغيرها .. كما كتب الفقهاء كتباً مفردة تعالج نظم الدولة الإسلامية منها «الأحكام السلطانية» للقاضي الشافعي أبي الحسن الماوردي (المتوفى سنة ٤٥٠هـ) وكتاب الإمام ابن تيمية (المتوفى سنة ٧٢٨هـ) «السياسة الشرعية» .. كذلك عني المؤرخون بتنسيق نظم الدولة الإسلامية على أرض الواقع التاريخي ، وقد جاءت مقدمة ابن خلدون (٨٠٨هـ) لتتجمع بين التأصيل الفقهي والتطور التاريخي في عرض نظم الدولة الإسلامية . (د. محمد فتحي عثمان ، من أصول الفكر السياسي الإسلامي ، ص ١٣/١٤) .

٢ - د. حسن الشافعي ، لمحات من الفكر الكلامي ، دار الثقافة العربية ، ص ٣٥١ .

٣ - د. محمد محمد حسين ، أزمة العصر ، دار عكاظ للطبع والنشر ، ص ٥٦ .

وكانت دولة الخلافة تقوم بواجبها كاملاً أو تفرط فيه وتتساهل في بعضه حسب الظروف والأحوال ، ولكن الدول الإستعمارية الغربية ظلت تكيل الضربات للخلافة في شكل موجات متتالية ، فرادى ومجموعة منذ الحروب الصليبية التي اقترنت في الأذهان بالحقْد والكراهية للإسلام وأهله إلى أن ألغيت آخر أشكالها (الخلافة العثمانية) في مارس عام ١٩٢٤ م .^(١)

وقد يبدو الأمر غير خطير إلى حد الإزعاج في أعين أبناء هذا الجيل ممن لم يعرفوا الخلافة الإسلامية ، وممن يتخيلون أنها طراز من الأشكال التاريخية التي طواها الزمن ، ولكن شعور الذين عاصروا الخلافة الإسلامية وولدوا في ظلها وعاشوا في دولتها كان مختلفاً جد الإختلاف ، فقد كانت في نظرهم وعاء للإسلام ، ورمزاً لوحدة ، وتحقيقاً لوجوده في الحياة .^(٢)

وشكيب أرسلان كان واحداً ممن عاصروا (الخلافة العثمانية) عن قرب ، وعملوا على تثبيت أركانها والنزود عن حياضها ، وكان يدرك أن إلغاء الخلافة ليس سوى مدخلاً إلى إتمام سيطرة الإستعمار الغربي على الجماعة والشرع والأرض ، إذ بسقوط الخلافة تصبح المجالات مفتوحة أمام الغرب لكي يحول أمة المسلمين إلى وحدات سياسية مستقلة عن بعضها ، وتصبح من خلالها مسألة عزل الشريعة قريبة المنال ، ونتيجة ذلك تصبح الجماعة كلها سهلة الإنقياد والخضوع للغرب .

«وتحققت توقعات المعارضين لقرار الإلغاء إذ استتبع ذلك خطوات متتالية في الإتجاه نحو الفصل بين الإسلام والحكم ، وتحول الدولة إلى علمانية لادينية ، فقد ألغيت على إثر إلغاء الخلافة الشريعة الإسلامية من المحاكم ، ورفع التعليم الديني من الكتاتيب والمدارس ، وإجبار النساء على السفور وخطط الإناث والذكور في دور العلم وليس القبة والكتابة بالحروف اللاتينية ، كل ذلك بعد أن حذف من دستور تركيا المادة

١ - د. مصطفى حلمي ، نظام الخلافة في الفكر الإسلامي ، دار الأنصار ، ص ٥٣٨-٥٣٩ .

٢ - د. محمد محمد حسين ، أزمة العصر (مرجع سابق) ص ٥٦ .

التي فيها «إن الإسلام هو دين الجمهورية التركية»^(١)

كما هجمت على المسلمين ألوان من الفكر السياسي وتطبيقاته في نظم الحكم والإدارة فتن بها كثير من الناس فنشأ الخلاف حول تصور الأمة والدولة والوطن .

«وكان إلغاء الخلافة كان إشارة البدء لتحولات عميقة الجذور في كيان الأمة الإسلامية كلها ، إذ انتقلت العدوى رويداً رويداً من تركيا إلى سائر البلاد ، واقتفت أثرها في معظم القرارات ، وإن لم تكن بقرارات رسمية ، فقد تمت عن طريق التقليد والمحاكاة»^(٢)

وساهم العنف السياسي (السيطرة الاستعمارية والتجزئة) والتغريب في تدعيم عزل عناصر الشريعة ، وقيام دول حديثة على جثة الخلافة ، تستلهم النمط الغربي وتناقض الشريعة ، وتسعى في استمرارها على مبدأ (القوة المادية التي هي معبود الغربيين)^(٣)

وأحس الأمير شكيب بأن تغلغل الاستعمار الغربي في بلاد الاسلام لن يقف عند الاستعمار السياسي والنهب الإقتصادي بل سيتجاوز ذلك إلى محاولة هدم كل ما يميز هوية هذه الدول ويضمن بقاءها تحت نير الاستعمار ، يقول الأمير متحدثاً عن الغربيين «أنهم غلبوا على هذه المستعمرات واستعبدوا هذه الأمم ، فيريدون أن يحتاطوا لأجل تأييد سلطانهم عليها بجميع الوسائل ، ولا يقفون عن شيء في سبيل إحكام سلاسل هذه العبودية ، ظانين أنهم يحفظونها راسفة في هذه الأصفاة إلى الأبد ، فتراهم يفكرون في تهيئة الأسباب لاستئصال كل ما يخشون وقوفه في وجه مآربهم السيئة ، من دين ولسان، وقومية ، ووطنية ..»^(٤)

لذلك حرص الأمير على وحدة المسلمين ، وسعى إلى معالجة دولة الإسلام لأنه

١ - تعليقات الأمير شكيب أرسلان ، ج ٣ حاضر العالم الإسلامي ص ٣٥١-٣٥٢ .

٢ - د. مصطفى حلمي ، الخلافة (مرجع سابق) ص ٥٣٩ .

٣ - تعليقات الأمير شكيب أرسلان ، ج ٢ حاضر العالم الإسلامي (مرجع سابق) ص ٣٣٤ .

٤ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ٢ ص ٣٥١ .

رأى أن رد الغزوة الأوروبية أمر يتجاوز طاقة شعب مسلم بمفرده ، فلما رأى الكماليين باعوا تركيا لمبادئ الغرب ، وانحازوا عن الشرق ليرتموا في أحضان الحضارة الغربية ، ثار عليهم وأجهز على مصطفى كمال ورهطه فقال : « إن الذي قصده مصطفى كمال لم يكن سوى مجرد التفرنج ، وأن تفهم أوروبا أنهم هم نبذوا التقاليد الإسلامية ، ورموا بالشرعة القرآنية عرض الحائط ، وأقاموا مقامها قوانين أوروبية » ^(١) ثم قال : « إن الهدف من الكتابة التركية بالحروف العربية هو إقصاء الترك عن العرب ، وإبطال قراءة القرآن تدريجياً » ^(٢)

كما تصدى الأمير شكيب لقضية (فصل الدين عن الدولة) التي روج لها الغربيون في العالم الإسلامي وبين ما فيها زيغ وضلال ، كما أثبت أن أوروبا لم تفصل بين الدين والسياسة كما يزعم المظلون ، ودافع الأمير عن الشرعة الإسلامية دفاعاً حاراً في مواجهة المستشرقين والمتفرنجين مؤكداً صلاحية الشرعة لكل زمان ومكان ، وبين أن التعصب الإسلامي - في ما لو حدث - هو مجرد رد فعل لتعصب كانت الدول الأوروبية تبديه على الدوام ، لذلك قاوم الأمير البعثات التبشيرية لأنها رضىت أن تكون غطاء للأطماع الأوروبية .

« وكان الأمير يسعى إلى مؤتمرات المستشرقين ، ليناقد العلماء عن الإسلام والشرق ، ويصحح آراءهم » ^(٣) كما كان يتتبع كل ما يكتبه الغربيون عن الإسلام فيرد عليهم ويحتفل بالأمين منهم ويبين ما في دعاوي المفرضين من طعن في الإسلام وإيذاء للمسلمين .

وهكذا حلت مشكلات جديدة في الفكر الإسلامي نتيجة البحوث الفكرية التي خلفها الإستعمار لمعاونته في تمكين سلطته في رفعة البلاد الإسلامية ، وأصبح من الضروري أن يجابهها الفكر الإسلامي بطرق ملائمة لثقافة العصر وحضارته ، فانقلب

١ - المصدر نفسه ، ج ٢ ص ٢٤٦ .

٢ - سامي الدهان ، شكيب أرسلان (مراجع سابق) ص ٣٢٥ .

٣ - سامي الدهان ، شكيب أرسلان ، ص ٣٢٥ .

العالم الإسلامي مدافعاً بعد أن كان ممسكاً بزمام الأمور مرهوب الجانب مسموع الكلمة^(١)

وإذا كان علم الكلام كما يعرفه ابن خلدون : (علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية ، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة)^(٢)

فإننا نعتبر جهود الأمير شكيب أرسلان الفكرية في مواجهة الفكر الغربي الوافد داخلية في إطار (علم الكلام) كما اقتضتها ضرورات العصر لمواجهة خصوم الإسلام ، وأداءً لواجب العلماء نحو دينهم وأمتهم .

وحديث الأمير شكيب أرسلان عن الخلافة حديث متشعب ممتد الأطراف إلى قضايا مختلفة تتصل بالأصول الثابتة التي تناولها علماء العقيدة ، وتتفرع في مواجهة خصوم الإسلام والدفاع عن شريعته وعلاج أزمة الخلافة في العصر الحديث .

وقد بينا في هذا الفصل آراء الأمير شكيب الكلامية عن القسم النظري في مسألة الخلافة ومكانتها من الشرع الإسلامي ، وحقيقتها ، وشروطها ، وأحكامها المختلفة . كما فصلنا القول في مواجهة الأمير شكيب أرسلان للشبهات التي أحاطت بها في العصر الحديث واستهدفت نفي الخلافة من الزمن والقضاء على ما يجدد شرعيتها في التاريخ ، مثل قضية فصل الدين عن السياسة ، والطعن في التشريع الإسلامي وقدرته على مسايرة العصر .

كما عرضنا موقف الأمير شكيب أرسلان من عقيدة القضاء والقدز التي حاول خصوم الإسلام أن يرجعوا إليها أسباب تخلف المسلمين ، وبيننا موقفه الذي يهدف إلى إظهار مسئولية المسلمين عن واقعهم ، ونفي (عقيدة الجبر) التي تحجب الكسل

١ - د. مصطفى حلمي ، منهج علماء الحديث والسنة ، ص ٧٠-٧١ .

٢ - مقدمة ابن خلدون ص ٤٥٨ ط : المكتبة التجارية الكبرى - مصر .

والتواكل إلى كثير من المسلمين ، وهي شبهة من بين الشبهات التي أراد المستشرقون أن يلصقوها بالإسلام .

أما القسم العلمي التطبيقي الذي يمثل إجتهدات الأمير شكيب أرسلان في علاج أزمة الخلافة الشاغرة بما يراه من نظام آخر يحقق وحدة المسلمين وفق روح العصر مع التمسك بالأصول والمبادئ التي تقوم عليها نظم الدولة الإسلامية ، وتفرد بها بخصائصها التي تتميز بها عن سائر أنظمة الحكم الأخرى ، فسنبين ذلك في الفصل الذي يتناول الفكر السياسي عند الأمير شكيب أرسلان .

١- قضية الخلافة الإسلامية في فكر الأمير شكيب أرسلان

حكم الخلافة في الإسلام

إن العرب لم تجتمع كلمتها إلا بدعوة دينية هي دعوة الإسلام ؛ فليس من عادة العرب قديماً ولا حديثاً التخاضع لملوكلهم وأمرآئهم كما تتخاضع لأمرائها و ملوكها سائر الأمم ؛ بل تراهم لا يخاطبون أمراءهم و مشايخهم بالألقاب الضخمة ؛ ولا بالنعوت التي يخاطب غير العرب بها ملوكهم .

لذلك لما قال كسرى للنعمان بن المنذر إن الروم و الفرس و الهند .. إلخ لها ملوك تجتمع على طاعتها ؛ وإن العرب لا يزالون فرقاً و حزقاً ليس لهم أمر جميع ولا ملك ضخم ، أجابه النعمان : إن الأعاجم تطيع ملوكها من استخذاء نفوسها وأما العرب فإنها أعز نفوساً و أحمى أنوفاً من أن تطيع ملكاً ، بل تجد العرب كلهم ملوكاً [١] وكما كان ذلك دليلاً على شمم العرب وعزة نفوسها فلا ينكر أنه كان العلة الأصلية في تحاسد هذه الأمة وتنافسها وحدة مناظرة بعضها لبعض وضعف قوتها ، وقد خبرها الشاعر الجاهلي الأفوه الأودي فقال :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا [٢]

وما ينطبق على العرب ينطبق على غيرهم ؛ فلولاء الولاة لكان الناس فوضى مهملين وهمجا مضاعين ، وقد أشار إلى هذا المعنى ابن خلدون فقال : ثم إن هذا الاجتماع إذا حصل للبشر كما قررناه وتم عمران العالم بهم ، فلا بد من وازع يدفع بعضهم عن بعض ، لما في طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم وليست آلة السلاح التي جعلت دافعة لعدوان الحيوانات العجم عنهم كافية في دفع العدوان عنهم لأنها موجودة لجميعهم ، فلا بد من شئ آخر يدفع عدوان بعضهم عن بعض .

[١] تعليقات الأمير شكيب أرسلان على حاضر العالم الإسلامي ص ٤٩

[٢] الأحكام السلطانية، أبو الحسن الماوردي ص ٥

ولا يكون من غيرهم لقصور جميع الحيوانات عن مداركهم وإلهاماتهم فيكون ذلك
الوازع واحداً منهم يكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة ، حتى لا يصل أحد إلى غيره
بعدوان ، وهذا هو معنى الملك..." [١] .

لذلك رأى البعض أن الإمارة إنما وجبت بالعقل لما في طباع العقلاء من التسليم لزعيم
يمنعهم من التظالم ويفصل بينهم في التنازع والتخاصم... وإلى هذا المعنى أشار ابن خلدون
في مقدمته حيث قال : " وقد ذهب بعض الناس إلى أن مُدرك وجوبه (نصب الإمام) العقل
وأن الإجماع الذي وقع إنما هو قضاء بحكم العقل فيه" [٢] .

غير أن الإجماع واقع على أن نصب الإمام واجب قد عُرِف وجوبه في الشرع بإجماع
الصحابة والتابعين [٣] ؛ لأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عند وفاته بادروا إلى
بيعة أبي بكر رضى الله عنه وتسليم النظر إليه في أمورهم .

"وكذا في كل عصر من بعد ذلك . ولم تترك الناس فوضى في عصر من الأعصار .
واستقر ذلك إجماعاً دالاً على وجوب نصب الإمام " [٤] .

وقد جمع شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية بين العقل والشرع فرأى أن وجوب الإمامة
مشروع بالعقل المستند إلى النصوص الدينية فقاس وجوب رئاسة الدولة الإسلامية على
وجوب تأمير الثلاثة أدهم إذا خرجوا في سفر لما في الإمارة من مصلحة للمسافرين ناهيك
عن الأمة ، فقال : " ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين بل لقيام الدين إلا بها فإن بني
آدم لا تتم مصالحهم إلا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض ولا بد لهم عند الاجتماع من رأس
حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم " إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم " [٥] .

ومن النصوص التي يستند إليها قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا
الرسول وأولي الأمر منكم) يقول الماوردي : "فرض علينا " [٦] ووجوب الطاعة يقضى
وجوب المطاع .

[١] مقدمة ابن خلدون ، ١ د ، ص ٧١ ، ٧٢

[٢] المرجع السابق ١ د ، ص ٣٤٠

[٣] الماوردي ، الأحكام السلطانية ص ٥ / مقدمة ابن خلدون ص ٣٣٩

[٤] مقدمة ابن خلدون ، ص ٣٣٩

[٥] رواه أبو داود من حديث أبي هريرة عن الساسة الشرعية ص ١٦١

[٦] الماوردي ، الأحكام السلطانية ص ٥ (٣) تاريخ ابن خلدون ملحق الجزء الأول الأمير شبيب ص ٢٣

والأمير شكيب يرى أن وجوب الخلافة في الإسلام أمر مسلم به ، اتفق عليه المسلمون - إلا الخوارج والمعتزلة - ويرى أن علماء الإسلام أمثال ابن خلدون والماوردي وغيرهم كابن تيمية قد وفوا البحث في هذا الأمر حقه وأثبتوا وجوب نصب الإمام بكل ما يجب إن يقال [١] .

معنى الخلافة

يقول الأمير شكيب: " اتفق المسلمون - إلا الخوارج والمعتزلة - على وجوب نصب الإمام لحراسة الدين والدنيا، فكان هذا المنصب جامعاً بين السلطة الروحية - لكن بدون العصمة التي يقول بها الكاثوليكيون في البابا - وبين السلطة الدنيوية وهي مايسميه النصاري بالسلطة الزمنية - لكن بدون الامتيازات التي تسجلها القوانين الأوربية " [٢] : والأمير بتعريفه هذا للخلافة يتقيد بالتعريف المتفق عليه بين علماء المسلمين عند حديثهم عن الخلافة حيث يعرفها أبو الحسن الماوردي في صدر كتابه الأحكام السلطانية والولايات الدينية بقوله : " الإمامة موضوعه لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا " [٣] .

[١] أ - يقول ابن خلدون : " وقد شذ بعض الناس فقال بعدم وجوب هذا النصب رأساً لابلعقل ولا بالشرع ؛ منهم

الأصم من المعتزلة وبعض الخوارج وغيرهم ؛ والواجب عند هؤلاء ! إنما هو إرضاء أحكام الشرع ، فإذا توافقت الأمة على العدل وتنفيذ أحكام الله تعالى لم يحتج إلى إمام ولا يجب نصبه . وهؤلاء محججون بالاجماع

ابن خلدون - المقدمة مج ١ ط ٣ ص ٣٤٠ - ٣٤١

ب - وفي العصر الحديث خرج الشيخ على عبد الرازق ، أحد علماء الأزهر وأحد بضعة المحاكم الشرعية سنة ١٩٢٥م بكتابه " الإسلام وأصول الحكم - بحث في الخلافة والحكومة في الإسلام " . وفيه يتابع الشيخ رأى القائلين بعدم وجوب الإمامة ، ويعكس الكتاب نزعة " الدولة القومية الدستورية العلمانية " أو البعيدة عن أى صبغة دينية . وهي نزعة مستوحاة من مثيلتها في التاريخ الأوربي الحديث ، مع الفارق الضخم بين الخلافة في الإسلام والبابوية في المسيحية . (د: محمد فتحي عثمان ، من أصول الفكر السياسي ، مؤسسة الرسالة ، ص ٥٧) . وقد ورد عليه كثيرون منهم الشيخ محمد الخضرى حسين والشيخ محمد بخيت ، والسيد محمد رشيد رضا صاحب المنار ؛ ورد عليه حديثاً الدكتور محمد البهى رئيس جامعة الأزهر فى كتابه " الفكر الإسلامى وصلته بالاستعمار لغربى " وفيه يصف الكتاب بأنه يحكى عن الغرب أكثر مما يتحدث من جوهر الإسلام ذاته (الفكر الإسلامى الحديث ، هامش ص ٢٠٧) وقد شك الأستاذ ضياء الدين الرئيس أن يكون عبد الرازق مؤلف الكتاب فى كتابه (الإسلام والخلافة فى العصر الحديث) ...

[٢] تاريخ ابن خلدون ملحق الجزء الاول لشكيب ارسلان ص ٢٣

[٣] الأحكام السلطانية ص ٣

وكما عرفها ابن خلدون مبينا حقيقة منصب الإمام بأنه "نيابة عن صاحب الشريعة فى حفظ الدين، وسياسة الدنيا به ، تسمى خلافة وإمامة، والقائم به خليفة وإماما. فأما تسميته إماما فتشبيها بإمام الصلاة فى اتباعه والافتداء به؛ ولهذا يقال : الإمامة الكبرى. وأما تسميته خليفة فلكونه يخلف النبى فى أمته، فيقال : خليفة باطلاق.." [١] .

فبالخلافة إذن نمط فريد من أنماط أنظمة الحكم، وإن اصطلاح على اطلاق لقب الخلافة على رئاسة الدولة الإسلامية، وأصبح الخليفة لقب لمن يضطلع بولاية أمور المسلمين، غير أن "الخلافة لم تستم شروطها الصحيحة إلا فى الخلفاء الراشدين، وبعد ذلك فالخلافة لم تكن الا ملكا عضوضا قد يوجد فيه المستبد العادل والمستبد الغاشم، وما انقادت الأمة إلى هذا الملك العضوض المخالف لشروط الخلافة، سواء كان من العرب أو من الترك، إلا خشية الفتنة فى الداخل والاعتداء على الحوزة من الخارج" [٢] .

وقد فهم الأمير شكيب حقيقة الخلافة على أنها ليست عبارة عن صفة تمتاز بها احدى الحكومات الإسلامية بل هى "عبارة عن كون حكومة مانائية مناب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القيام بأحكام الشرع الإسلامى، فلها ركنان حكومة ونيابة" [٣] .

وقد بين النبى صلى الله عليه وسلم مكانة خلفائه منه فقال : " كانت بنو اسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبى خلفه نبى وإنه لانبى بعدى وستكون خلفاء فتكثر ..." [٤] . فخلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم بمنزلة أنبياء بنى اسرائيل من رسلهم حيث يحكمون بالتوراة التى أنزلها الله على موسى وهؤلاء يحكمون بالقرآن الذى أنزله الله على النبى الخاتم صلى الله عليه وسلم، غير أن هؤلاء الخلفاء أو الأئمة لا يوحى إليهم فهم ليسوا بأنبياء ، وهم بالتالى ليسوا بمعصومين إلا من عصم الله [٥] .

[١] تاريخ ابن خلدون مج ١ طب ١٩٨١ ص ٣٣٩

[٢] حاضر العالم الاسلامى ص ٢٩٠ هامش لشكيب أرسلان

[٣] الشيخ مصطفى صبرى، التكثير على منكرى النعمة ص ١٤٥

[٤] حديث مسلم فى كتاب الامارة .

[٥] محمود المرادوى - الخلافة بين التطهير و التطبيق ص ١٦

والأمير- يؤكد أن الإسلام وإن جمع للخليفة بين السلطتين الروحية و الزمنية إلا أنه لم يعطه العصمة التي يقول بها الكاثوليك في البابا و لا الامتيازات التي تسجلها القوانين الأوروبية للملوك و كان الخلفاء يفهمون حقيقة منصبهم على هذا النمو كما بينة الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه لما بويع وقام خطيباً فكان مما قال " كان رسول الله عبداً أكرمه الله بالوحى و عصمه به ، ألا وإنما أنا بشر ولست بخير من أحد منكم ، فراعونى فإذا رأيتمونى استقمتم فاتبعونى وإن رأيتمونى زغت فقومونى " [١] .

و كان عامة المسلمين لا يرون فى خلفائهم فضلاً ولا يقرون لهم بطاعة إلا بمقدار استقامتهم على الشرع ؛ و قيامهم بواجبات النبابة ؛ { وكانوا فى العصر القديم يقولون لعمر بن الخطاب و هو يخطب " لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا " . وكان الأحنف يقول لمعاوية و الله يا معاوية إن السيوف التى قاتلناك بها لهى فى اغماها " [٢] .

" وخطب ابوجعفر المنصور و لم يكن من الخلفاء الراشدين بل من الخلفاء القاسطين فقال ((ايها الناس اتقوا الله)) فقام اليه رجل من عرض الناس فقال له ((اذكرك الله الذى ذكرتنا به)) فأجابه الخليفة ((سمعاً سمعاً لمن ذكرنا بالله)) " [٣] .

و قد هاجم بعض أصحاب الفكر من الأوربيين الإسلام ورموه بالجمود لأنه جمع بين السلطتين الدينية و الدنيوية فكان هذا عائقاً للمجتمع الإسلامى عن الترقى، و سبباً فى تهقر المسلمين، وقد وافق بعض المسلمين هؤلاء الطاعنين فى الشريعة الإسلامية و دعوا إلى فصل الدين عن السياسة و نجحوا فى ذلك فى معظم أقطار الشرق الإسلامى، وكان فى طليعة هؤلاء المسلمين الجغرافيين كما يسميهم الأمير شكيب - الأتراك الأنقريون شيعة مصطفى كمال أتاتورك ، وقد هاجم الأمير شكيب أرسلان الفريقيين و بين ما فى قولهم من تحامل على الدين الإسلامى وأن فى جملة " فصل الدين عن السياسة " من السفسطه التى لا تستند على شئ من الواقع، وهو قول مخالف لسنة الله فى خلقه، إذ أن الدين متصل بالدنيا فى كل مجتمع بشرى، و الدنيا ممتزجة بالدين بدون انفكاك ولا يتصور وجود أحدهما بدون الآخر [٤] .

[١] شكيب أرسلان التعليقات على تاريخ ابن خلدون ص ٢٦

[٢] ، [٣] شكيب أرسلان حاضر العالم الإسلامى ج ٤ ص ٦٩

[٤] تعليقات الأمير شكيب على تاريخ ابن خلدون ملحق الجزء الأول ص ٢٣

ومن مناقشة الأمير لخلط الأوربيين فى الشرع الإسلامى ومروجيه من المنتسبين إلى الإسلام يتجلى لنا مذهب الأمير فى الخلافة الإسلامية وما ينبغى أن تحيط به من أمور المعاش والمعاد .

قضية فصل الدين عن السياسة

قضية فصل الدين عن الدولة مرتبطة بأزمة الخلافة فى العصر الحديث، فمنذ العصور العباسية المتأخرة، تسلط على المسلمين حكام انحرفوا عن عدالة الإسلام وقيمه وأحكامه، وإن انتسبوا إليه وحكموا باسمه وعلى الرغم من أن الدولة العثمانية كانت تمثل درع الإسلام الحامى وترمز لوحدة المسلمين حتى فى أيام ضعفها، فإن معظم حكامها المتأخرين أصاروا كثيراً من أحقاد المسلمين داخل دولتهم وخارجها بسبب سوء سياستهم وأستبدادهم وغفلتهم وعشمتهم [١] . ولكن ذلك لم يؤثر على مشاعر المسلمين الدينية من قابلية الخلافة وقد كان ولاء الجماعة المسلمة للدولة كمؤسسة سياسية فى مرتبة ثانوية بالمقارنة مع ولانها لمرتبة الشرع وما تمثله الخلافة الدينية فى نفوس الجماعة، بل كان تمسك الجماعة الإسلامية بالشرع هو سلاح الجماعة الأمضى فى مواجهة هزال الدولة والخوف من أنهارها. مما يعنى أن تبعية المجتمع الفعلية هى للدين وليس للسياسة، وعلى هذا يقوم الاتحاد بين الدين والسياسة فى الإسلام مما يشير إلى استحالة الفصل بينهما حيث تستند قوة الدعوة على القيم الإيجابية للأخوة والجماعة والوحدة . بسبب ذلك استنفر الغرب كل قواه لكى يلغى خضوع السياسة للدين فى الإسلام، فكان الاصرار الغربى على إلغاء الخلافة أولاً، وقيام الدولة العثمانية الحديثة المستلهمة من الخارج ، ثانياً . ومنذ خلع الثوار العسكريون أعضاء جمعية الاتحاد والترقى السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٨م ثم أعادوا خلعه مره أخرى نهائياً فى العام التالى وولوا غيره أصبحت الخلافة العثمانية مجرد شبح روحى هزيل إذ قبض الثائرون العسكريون على السلطة الفعلية وهم وحدهم الذين يتحملون مسئولية الدولة العثمانية فى الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ - ١٩١٨م ، إذ لم يكن للسلطان محمد رشاد الملقب بمحمد الخامس الذى خلف عبد الحميد من السلطة إلا الاسم " .

[١] د. محمد فتحي عثمان / من أصول الفكر السياسى الإسلامى / ص ٤٧

" وحين قام كمال أتاتورك يقاوم الحلفاء المنتصرين الذين أرادوا فرض شروطهم القاسية على العثمانيين المنهزمين أجبر الحلفاء الذين كانوا يحتلون الأستانة السلطان محمد السادس الذى تولى وقتذاك وكان واقعا تحت تأثيرهم - أجبروه على استنكار مقاومة أتاتورك."

" وحين أنتصر أتاتورك سنة ١٩٢٤ بادر إلى إعلان الجمهورية وعزل الخليفة الأخير عبد المجيد الثانى وألغى الخلافة من بلاده، ليقيم دولة مستقلة محدوده على أساس القومية "[١] .
وبسقوط للخلافة أصبحت المجالات مفتوحة أمام الغرب لكى يحول أمة المسلمين إلى وحدات سياسية مستقلة عن بعضها ، وتصبح من خلالها مسألة عزل الشريعة قريبة المنال .
ولم يكن القبول بالأمر الواقع ممكناً بالنسبة للمسلمين دون البحث عن مخرج ، فالخلافة تراث تنظيمى ارتبط بمشاعر المسلمين طوال القرون ، وكان رمزاً لوحدهم ودرعا لدينهم وكيانهم الدولى ، وكان لإلغاء الخلافة ردود فعل قوية بين المسلمين فى عدد من الأقطار الإسلامية وفى مقدمتها الحجاز ومصر والهند "[٢] .

هنا جاء دور الدعايات التى أخذ يبنها أعداء الإسلام ورواد الاستعمار الأوروبى ويدخلون بها على ناشئة المسلمين " بالشبه التى تكره إليهم الشرع الإسلامى وتحبب إليهم المروق منه ، وهذا جعل ما تبغيه أوروبا من الدعاية فى هذا العصر بين المسلمين لمعرفة أنها ملادام الشرع المحمدى هو مدار العمل عند المسلمين كان هؤلاء يرون خضوعهم للأجانب ذنباً لا يغفره الله لهم إلا بالإستقلال التام وعارا عليهم لا يرحضه ألا طرد الأجنبى المتغلب من المستعمرات التى تغلب فيها عليهم. وأية مصيبة على أوربة أعظم من هذا ! "[٣] .

ومن جملة هذه الدعايات والدسائس قضية " فصل الدين عن السياسة " وزعم الفنة الدساسة من رواد الاستعمار وأعداء الإسلام أن أوروبا قد فصلت الدين عن السياسة بتاتا وطلقت هذه من هذا ثلاثاً وأنه لم يبق من يخلط الدين بالسياسة ويجعل للحكومة صبغة دينية إلا المسلمون الذين لم ينظروا إلى ما حولهم من المحدثات العصرية التى من جماتها جعل الدين فى واد والسياسة فى واد "[٤] .

[١] ، [٢] من أصول الفكر السياسى الإسلامى / المرجع السابق / ص ٤٩

[٣] شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامى ، ص ٣٥٠ ج ٣

[٤] حاضر العالم الإسلامى ، شكيب أرسلان ، ج ٣ ص ٣٥١

ولقد لاحظ الأمير شكيب إرسال خطر هذه القضية مبكراً، لذلك فهو يؤكد أن الداعين إلى فصل الدين عن السياسة لابد أن يكونوا عملاء للاستعمار الغربى وأعداء للإسلام لأن فصل الدين عن الدولة ليس مجرد بديل " غربى " عن الخلافة، بل محاولة مقصودة للحيلولة دون عودة هذه الخلافة فى يوم من الأيام، إذ لا يكفى نفى " الخلافة " من الزمن وإنما هم الغرب الأول القضاء على ما يجدد شرعيتها فى التاريخ. وهذا ما يفسر تلازم سقوط الخلافة مع تغريب الشرع.

وهذا ما دفع الأمير إلى توجيه كلمة إلى متلقى الدولة الحديثة ممن انتسبوا إلى الإسلام وتأثروا بالدعايات الغربية فدعوا إلى نهضة قومية فى البلاد الإسلامية ترفض كون القرآن أصل تشريعى للسلطة السياسية أقتداء بأوروبا التى نزعت من حكوماتها كل صفة مسيحية فى نهضتها الحديثة فكتب الأمير مخاطباً هؤلاء :

" يقول بعض الناس ما لنا وللرجوع إلى القرآن فى أبحاث همم المسلمين إلى التعليم فإن النهضة لا ينبغي أن تكون دينية بل وطنية قومية كما هى نهضة أهل أوروبا ، ونجيبهم أن المقصود هو النهضة سواء كانت وطنيه أم دينيه على شرط أن تتوطن بها النفوس على الخبز فى حلبة العلم، ولكننا نخشى إن جردناها من دعوة القرآن أن تقضى بنا إلى الإلحاد والإباحية وعبادة الأبدان واتباع الشهوات، مما ضرره يفوت نفعه، فلا بد لنا من تربية علميه سائرة جنباً إلى جنب مع تربيته دينيه، وهل يظن الناس عندنا فى الشرق أن نهضة من نهضات أوروبا جرت دون تربية دينيه ؟ وهل جرت نهضة اليابان دون تربية دينيه ؟ " [١] .

ويستدل الأمير على ارتباط أوروبا بالدين المسيحى بكلمات لبعض ساسات أوروبا الكبار، وبأن علم اللاهوت مازال يدرس فى كل جامعات أوروبا .

ثم يفسر الأمير مراد الأوربيون من قولهم : (نهضة وطنيه) أو (نهضة قومية) أو جامعة وطنيه أو قوميه، لا يكون مرادهم بالوطن التراب والماء والشجر والحجر، ولا بالقوم السلالة التى تتحد كلاً من دم واحد، وإنما الوطن والقوم عندهم لقطبان تدلان على وطن وأمة بما فيهما من جغرافية وتاريخ وثقافة وحرث وعقيدة ودين وخلق وعادة مجموعاً ذلك معاً، وهذا الذى يناضلون عنه ويستبسلون كل هذا الأستبسال من أجله [٢] .

فالأمير لا يميل من عرض الشواهد والدلائل على كذب من زعم أن نهضة أوزبا مبنية على تقصيصها من كل نزعة مسيحية وأنها لاتعرف شيئا إلا الأنسانية العامة، وأن الدين المسيحي لاتهتم به حكومة من حكومات أوروبا أكثر مما تهتم بغيره من الأديان.

وكان الأمير ممن فهموا فطاعة الفتنة اللا دينية في تركيا وتوقعوا أنفراط عقد الإسلام عروة عروة " ولقد روج هذه الأغلوطة مصطفى كمال رئيس جمهورية أنقره لغرض في نفسه من جهة سلبك الترك تدريجيا عن العقيدة الإسلامية وصرفهم عن اللغة العربية فسار بتركيا سيرة من يجعل الدين الإسلامي أجنيا عن الحكومة التركية كما أن الدين المسيحي هو أجنى عن الحكومات الأوروبية الراقية.. " [١].

يرى الشيخ مصطفى صبرى أن المروجين لفصل الدين عن الدولة أحد اثنتين: إما مستبطن للألحاد أو جاهل بمعنى مايقول لأن تزويج الفكرة لايقتق مع الإيمان بأن الدين منزل من عند الله عز وجل، وأن أحكامه المذكورة فى الكتاب والسنة أحكام الله تعالى بواسطة رسوله صلى الله عليه وسلم [٢]. ويؤيد ما ذكره الشيخ ماألت إليه الدولة فى تركيا من الأحوال الدينية، فلم يكن فصل الدين عن الدولة إلا مقدمة لإلغاء جميع ما شتم منه رائحة الإسلام من أوضاع الحكومة التركية، وهو ما عدده الأمير شكيب فى حديثه عن ما أحدثه مصطفى كمال وحزبه المسمى "خلق فرقة سى" فقال عنهم أنهم أبطلوا المحاكم الشرعية بعد أن أبطلوا العمل بالشرعية وألغوا الوزارة التى كان أسماها " مشيخة الإسلام"، وحزفوا من دستور تركيا المادة التى فيها "إن الإسلام هو دين الجمهورية التركية". وكانوا على مدة بضع سنوات أبطلوا إقامة مراسيم العيدين النحر والفطر [٣].

"وأما الكتابة التركية بالحروف العربية: فقد كان تعليلها فى ظاهر الحال تسهيل التعلم على النشء وتقصير المدة اللازمة للقراءة ولكن الغرض الحقيقى منها أقضاء الترك عن العرب وإبطال قراءة القرآن تدريجيا وأهم من ذا وإذا إقناع أوروبا بأن تركيا قد تقرجت تماما وأنه صار من العدل أن تدخل فى العائلة الأوروبية ولهذا الغرض الأخير نفسه حمل مصطفى

[١] حاضِر العالم الإسلامى، شكيب أرسلان، ج ٣ ص ٣٥١

[٢] موقف العقل والعلم، الشيخ مصطفى صبرى ج ٤ ص ٢٩٤

[٣] حاضِر العالم الإسلامى، ج ٣ ص ٣٥١

كمال الأتراك على لبس القبعة ليزدادوا اندماجاً فى الأوربيين " [١] .

ويدافع الأمير عن الشعب التركى المسلم فينفى عنه أن يكون الأتراك راضين مغتبطين بإلغاء الشريعة الإسلامية من المحاكم ورفع التعليم الدينى من الكتاتيب والمدارس وإجبار النساء على السفور وخلط الإناث والذكور فى دور العلم وحمل الأوانس على الزفن مع الشبان ولبس القبعة والكتابة بالحروف اللاتينية إلى غير ذلك مما أحدثته الحكومة التركيه (الأنقرية) الكماليه ويؤكد الأمير أن العقيدة الإسلامية لم تزعها حتى الآن فى تركيا هذه السياسة اللادينية ولايزال الشعب التركى شديد الإعتصام بعروة الدين الوثقى تدل على ذلك مظاهره الدينية فى استبول وغيرها مما لم يخف على الأفرنج الذين أشاروا إليه فى جرائدهم [٢] .

ولكن الأمير حذر من الخطر الذى يهدد استمرار تمسك الشعب التركى بعقيدته الإسلامية إن أستمर الحكم اللادينى مدة طويلة ونشأة الأفواج الجديدة على ماهى عليه من فقد التعليم الدينى [٣] .

ويرد الأمير زعم الأنقرين أن الحكومات الاوربيه قد ألغت التعليم الدينى من مدارسها، فالحكومات الكاثوليكيه بأجمعها مرتبطه أشد الارتباط بالدين الكاثوليكي، بما فى ذلك الحكومة الفرنسيه التى لاتوجب التعليم الدينى فى المدارس الرسميه إلا أنها لاتعارضه فى غير المدارس الرسميه بل التعليم الدينى مالى فرنسا بواسطة المدارس الأهليه [٤] ، فالدول الأوربيه وحكوماتها لم تقطع الصلة بالدين بل تحرص الحكومات الأوربيه دائماً أن تظهر فى كل فرصه بمظهر دينى مسيحى، ويسوق الأمير من الشواهد الكثير ليدلل على ارتباط الحكومات الأوربيه بالدين المسيحى وكذب الزاعمين بغير ذلك .

ويرى الأمير أن كل مافعلته أوربا من فصل الدين عن السياسة مجرد الفصل الإدارى كما هناك فواصل فى سائر فروع الإدارة بعضها عن بعض وأنه ليس من المعقول أن الدولة الرأقيه لا تكثرث لأمر الدين وهو الذى يحيا ويموت السواد الأعظم من رعاياها، فالدولة التى

[١] المرجع السابق ج ٣ ص ٣٥٢

[٢] ، [٣] حاضر العالم الإسلامى ، ج ٣ ص ٣٥٣

[٤] المرجع السابق ، ج ٣ ص ٣٦٠

لا تهتم بأمور رعاياها الدينيه تكون جاهلة معنى السياسة بالمره [١] .

"ومما لامشاحة فيه أن بين الديانة والسياسة فصلا اداريا بحيث كل منهما لها دوائر تختص بها . ولكن مرجع الجميع إلى الحكومة، والحال في بلاد الإسلام لا تختلف عن ذلك. فمشيخة الإسلام منفصلة عن سائر النظارات المدنية " [٢] .

"وخلاصة القول أن فصل الدين عن السياسة لم يكن معناه في أوربا والممالك المتمدنة إهمال الدين ولا تجريد الحكومات من صبغته إذ أن الحكومات إنما هي ممثلة للشعوب فكما تكون الشعوب تكون الحكومات وما دامت شعوب أوربا وأمريكا مسيحية فحكومات هاتين القارتين مسيحية قولاً واحداً . وما دامت أمة اليابان طاوية فحكومتها طاوية وما دامت الصين بوزية فحكومتها بوزية وما دام أهل صيام يعبدون الفيل الأبيض فحكومتهم تسجد للفيل الأبيض" [٣] .

إذا خرافة فصل الدين عن الدولة أو السياسة في أوربا التي لا يزال تشدق بها بعض المضللين في الشرق ليس لها أصل إلا بالمعنى الإداري الذي هو جار أيضاً في بلاد الإسلام [٤] .

ومن أهم الأدلة التي يستشهد بها الأمير وتدل دلالة صارخة على تمسك الأوربيين بالديانة المسيحية بل وتعصبهم لها ؛ عضد الدولة الأوربية للرسالات التبشيرية بالدين المسيحي [٥] مما دفع الأمير إلى أن يتساءل " فإن كانت الأديان عند الدولة الافرنسية على حد سواء فلماذا هذا الاجتهاد في تنصير البربر وهم مسلمون؟ ولماذا هذه المساعي الحثيثة في تنصير العلويين سكان جبال اللاذقية وفي فصلهم عن الوحدة مع سوريا والحال أن العلويين هم فرقة من الفرق الإسلامية كما لا يخفى " [٦] .

[١] المرجع السابق ، ج ٣ ص ٣٥٧

[٢] حاضر العالم ، شكيب أرسلان ، ج ٣ ص ٣٦٠

[٣] المرجع السابق ، ج ٣ ص ٣٥٨

[٤] (يقول شكيب : " وقد كان في الدولة العثمانية كما يعلم كل أحد. فالصدر الأعظم كان ينظر في الأمور السياسية والإدارية خاصة وشيخ الإسلام كان ينظر في الأمور الشرعية والدينية خاصة، وكل من المرجعين كان يعود إلى السلطان) تعليقات الأمير على ابن خلدون ص ٢٣

[٥] حاضر العالم ، شكيب أرسلان ، ج ٣ ص ٣٥٧

[٦] لماذا تأخر المسلمون ؟ شكيب أرسلان ص ١٣٨

كما ينصح الأمير الأنجليز بالعدول عن دعايتهم الدينية في السودان والأوغانده وينصح لهولاندة بترك دعايتها الدينية بين مسلمي أندونيسيا " [١] .

وهكذا يكذب الأمير إدعاءات المضللين وعلى رأسهم حكومة تركيا الكمالية في قولهم أن الحكومات الأوربية لاسيما الراقية منها لاتعنى بأمور الديانة المسيحية، ويعلن الأمير ذلك صراحة فيقول : " وحكومة تركيا الكمالية لاتصدق رعيّتها القول أصلاً عندما تقول لهم أن دول أوربا قد نبزت الديانة المسيحية ظهرياً وأن رقيها المادى لم يتهياً لها إلا بنبذ العقائد الدينية " [٢] . ويسخر الأمير من حكومة أنقره التى أعلنت كونها حكومة لادينية عملاً بمبدأ فصل الدين عن الساسه - ومعناه استقلال كل من الدين والحكومة عن الآخر ومساواتهما فى هذا الاستقلال، بالأى يتدخل كل منهما فى أمر الآخر وإن كانت هذه المساواه أيضاً مما لايرضاه الإسلام الذى لايرضى الكفر [٣] - وهى نفسها - أى الحكومة الأنقرية - لاتزال كل يوم تصدر أوامر وتسقن قوانين متعلقة بأمور دينية محضه من جعلتها الصلاة باللغة التركيه التى من أجلها ثارت الأفكار فى تركيا فى هذه الأيام ورفض الأكثرون امتثال أوامر الحكومة بها وقالوا أنه لا بأس بأن يلقى الخطيب خطبة الجمعة بالتركي فإن الصلاة نفسها بالتركي فهى مخالفة للسنة [٤] .

ويرى الأمير أن الحكومة التركية الكمالية تناقض نفسها بنفسها عندما تدعى الاقتداء بالحكومات الراقية فى فصل الدين عن السياسة وهى تتدخل كل يوم فى الأمور الدينية الصرفة، ويرى الأمير أنه كان من الأولى بهم انسجاماً مع مذهبهم أن يتركوا هذه الأمور لرؤساء الدين وحدهم . والحق أن تدخل الحكومة فى أمر الدين لايعد تناقضاً فى نظر الأنقريين لأنهم وضعوا الدين تحت أمر الحكومة، فمسألة الفصل بين الدين والسياسة ترمى إلى أكثر من مساواتهما فى الاستقلال وأمر " لأن السياسة التى يتولاها جانب الحكومة ويتخلّى عنها جانب الدين عند الفصل التى معناها السيادة والإشراف على كل من يدخل تحت سقف البلاد، لابد أن تضع الدين تحت أمر الحكومة ونهيهها مع كل مايدخل تحت ذلك

[١] لماذا تأخر المسلمون ؟ شكيب أرسلان ص ١٣٨

[٢] حاضِر العالم ، شكيب أرسلان ج ٣ ص ٣٥٩

[٣] الشيخ مصطفى صبرى، موقف العقل ج ٤ ص ٢٩٣

[٤] حاضِر العالم ، ج ٣ ص ٣٥٩

السقف ومجرد هذا الوضع يناقِ عِزة الإسلام الذي يعلو ولا يعلو عليه كل المنافاه ويوجب الكفر، حتى وأو فرض أن الحكومة تحترم دين الأمه دائماً وتخدمه ولا تمسه بشيء من الإضطهاد مع كونها قادرة عليه، من حيث أن سياسة البلاد بيدها لا بيد الدين" [١] .

ويقرر الأمير أنه يوجد في أوربا أقوام يجاهرون بعدم الاعتقاد ويناصبون الأديان وبخاصة الديانة المسيحية. ولكن هذا الجنس من الأوربيين لا يزال قليلاً بالنسبة إلى السواد الأعظم، والأوربيون يعلنون بأجمعهم أن ثقافتهم هي الثقافة المسيحية وأن مدنيّتهم هي المدنية المسيحية وأن حكومتهم هي الحكومات التي يتألف منها ما يقال له "العالم المسيحي" .

[٢] . ثم يؤكد الأمير أنه ليس في الدنيا سوى ثلاث حكومات تناهض الدين باطنياً وظاهراً، وهي الجمهورية الحمراء الروسية والجمهورية الكمالية الأنقريه وحكومة المكسيك [٣] . ويذكر الأمير الأسباب التي دعت الحكومات الثلاث إلى نبذ الديانة وأقامة الدول اللادينية وهي أسباب استبداده ليس للأديان دخل فيها" وقد يكون فصل الدين عن الدولة أضّر بالإسلام من غيره من الأديان لكون الإسلام لا ينحصر في العبادات بل يعم نظره المعاملات والعقوبات وكل ما يدخل في اختصاص المحاكم والوزارات ومجالس النواب والشيوخ فهو عبادة وشريعة وتنفيذ ودفاع، ويكون عموم نظر الإسلام هذا لكل شأن من شئون الدولة معابة عليه في زعم المروجيين لفصل الدين عن الدولة، ومعابة تؤكد لزوم الفصل، في حين أن ذلك مزية للإسلام تصعده إلى سماء الرجحان بالنسبة إلى سائر الأديان، وتكون أمتع مانع لمبدأ الفصل " [٤] . وبعد أن يعدد الأمير مواقف الدول الكاثوليكية بإزاء الدين المسيحي ويثبت أنها بأجمعها على أشد ما يكون من الاعتصام به، يقيم الأدلة من أقوال المصلح المسيحي الأشهر "كلفين" على تلازم السلطة السياسية مع السلطة الروحية لتحقيق العدالة وتنفيذ إرادة الله [٥] . لأن الحكومة العاملة بالقوانين الشرعية الإلهية تكون هي التي تراعى العدالة في تطبيق القوانين أيضاً والتي ترى نفسها تحت مراقبة وإزعج من مخافة الله، لا

[١] موقف العقل والعلم ج ٤ ص ٢٩٣

[٢] ، [٣] حاضر العالم ، ج ٣ ص ٣٥٨ - ٣٥٩

[٤] موقف العقل والعلم ، ج ٤ ص ٢٩٥

[٥] يقول الأمير : " هي سنة الله في أرضه، ومادامت الأمم لا تستغنى عن الأديان ؛ فملوكها وحكوماتها لا تستغنى عن الجمع بين الدين والسياسة " . ملحق ابن خلدون ص ٢٤

الحكومة التي لاتؤمن بالله ولا بقوانين، يقول (كفّين) : " إن الملك الذي لاينشد مجد الله فليس بالذي يقيم مملكة وإنما هو يقيم لصوصيه . وعلى الحاكم أن يقبل مراقبة رعاة الدين ويوطد بالاتفاق معهم نظام الدولة لا النظام المدني فقط بل النظام الديني أيضا والنظام الأدبي والاجتماعي وعليه أن يعقب اللصوص والفساق....الخ " [١] .

ومن الملاحظ هنا أن الأمير يكثر من الاستشهاد بكلام علماء وساسة الغرب، وذلك لأنه يخاطب النشء الجديد الذي أغرته دعاوى المنفرنجين حتى أن بعض النشء الجديد لايعتقدون بشيء ولا يحتفلون بأمر مالم ترو لهم فيه كلاما عن فيلسوف أوربي عظيم...." [٢] لذلك فالأمير يقيم الأدلة " من أقوال العلماء الأوربيين الذين ليسوا بمسلمين ليقال فيهم أنهم قالوا ماقالوه متأثرين بعتيقتهم التي نشأوا عليها وإنما هم من العلماء المنصفين الذين نشدوا الحق " [٣] . وهذه الطريقة سمة من سمات عصر أزمة الخلافة الذي أصبح الإعجاب فيه بكل وافد من الغرب وهما مسلطاً على الناس ، حتى احتاج الداعون بدعوة الإسلام إلى أن يضربوا للناس الأمثال بزعماء الغرب وفلاسفته ممن يحترمون دينهم .

[١] حاضِر العالم ، ج ٣ ص ٢٦٤

[٢] المرجع السابق ، ج ١ ص ٤٢

[٣] المرجع السابق ، ج ١ ص ٣٧

دفاع الأمير شكيب أرسلان عن الشريعة الإسلامية

- رمى الشرع الإسلامى بالجمود لتعلقه بالمعاد و المعاش

وهذه شبهة جلاها الأمير شكيب أرسلان فيما جلا من شبهات علقث أوهاماها بعقول كثير من الناس وهى من جملة الدعايات التى يبنئها أعداء الإسلام ورواد الأستعمار الغربى لصرف ناشئة المسلمين عن الشرع المحمدى بل تكره إليهم هذا الشرع وتحبب إليهم المروق منه . ونحن نعرض آراء الأمير شكيب فى مناقشتها لارتباط هذه الآراء بمذهبه فى الخلافة من حيث إيمانه بأنها جمعت بين السلطتين المادية والروحية دون أن يكون فى الجمع بينهما أى عائق لتقدم الأمة وعزتها . يقول الأمير " قرأنا وقرأ غيرنا ومازلنا نقرأ عن الخرافة التى معناها أن سبب تقهقر المسلمين هو الشريعة الإسلامية بسبب كونها أحاطت بأمر المعاد والمعاش معاً وجاءت بأحكام سرمدية لاتتغير ولاتتبدل وقضت بتطبيقها فى كل زمان ومكان بدون نظر إلى أختلاف الأزمنة والأمكنة إلى غير ذلك من الأقاويل التى منهم من يلقفها من دون رؤية ولا انعام نظر ومنهم من يعلم سيرا لمسألة لكنه يتجاهل ذلك عمدا كراهية منه للإسلام وعملا لهدمه ، ومنهم من يرويه كحكاية حال ويظن أن لهذا الأمر بعض التأثير فى الحالة التى آل إليها المسلمون [١] .

[١] تعليقات الأمير على حاضر العالم الإسلامى ج ٣ ص ٢٤٣

الإستشراق والشرعة

«إن أهم أسباب الجفاء بين الغربيين والشرقيين هو كون الإسلام جاء لهداية البشر كافة ، بحيث أتى على الوثنية في البلاد التي انتشر سلطانه فيها ، ودخل فيه من الصابئة واليعاقبة والنساطرة والمجوس واليهود وغيرهم جمهور كبير ، فخافت أوروبا النصرانية من سيطرته على ربوعها واتفق ملوكها وساستها ورهبانها على حرب الإسلام وبدأت الحروب الصليبية التي دامت أكثر من قرنين ويدهي بعد هذه الأحقاد والحروب والمكايد التي طالت لياليتها السود وخاصة بعد أن هددت الدولة العثمانية أرجاء أوروبا زمناً طويلاً حتى دب الهرم فيها ، إلى أن يقول الخصم ما قد يحط من قدر خصمه ويصغر من أمره ، ويشكك في تراثه» ^(١) ، هذا هو ما فعله الغرب مع العرب محققاً خطته من خلال الإستشراق وغيره .

وهكذا بدأ التشكيك في مسيرته محارلاً أن يحتاج كل ما هو إسلامي فبدأ (رينان) يشكك في الإسلام مدعياً أنه عدو العلم والحضارة العقل ، وأخذ (كرومر) يشك أيضاً في الإسلام معلناً بأنه دين مناف للمدنية تماماً وأنه لا يصلح للأعصر الحديثة مطلقاً فدعا المصريين إلى التحرر من القرآن والشرعة والدين واللغة والأدب ، وذهب (ليوتي) يشير الخصومة بين العرب والبربر ويشكك في القرآن واللغة والأحكام ، وينشئ محاكم البربر العرفية محل محاكم الشرعة الإسلامية ، واتجه (لا فيجري) يقيم المدارس التبشيرية ويحارب العربية ويدعو المغرب العربي إلى التمسك بحياته التي كان عليها قبل إسلامه ، وجاء (هانوتو) فانقض على الحضارة العربية الإسلامية ، وادعى أن الإسلام دين بشري يقود الإنسان إلى التسكع والكسل والتواكل ، وذهب في تشكيكه إلى أبعد ما يمكن أن يتصوره العقل البشري فدعا أوروبا إلى القضاء على القرآن وأتباعه ، وظهر (زويسر) فهاجم الفكر العربي الإسلامي بكل ما أوتى له من وسيلة .. ، وأخذ (مرجوليوس) يخطط للتشكيك في النبوة المحمدية والتراث والثقافة الإسلامية ،

واتجه (لامانس) إلى التشكيك في التراث العربي بأسره وكرس حياته كلها من أجل أن ينال من قدر العرب واللغة والقرآن ، وتخصص في دراسة صدر الإسلام لغرض هدمه ... ، وقام (جولدزيهر) بجهد جبار من أجل التشكيك في التراث العربي ، واتجه إلى التشكيك في الرسالة الإسلامية والفقه والأحاديث النبوية علاوة على تشكيكه في قيم التراث الأخرى .^(١)

ولم يقف المستشرقون عند حد ، « فهم حريصون على تجريد المسلمين والعقلية الإسلامية والفكر الإسلامي بصفة عامة من كل القيم الإنسانية والحضارية والابتكارات العلمية »^(٢) ، فالتشكيك في التراث العربي الإسلامي لم يكن إلا هجوماً صارخاً على كل ما هو عربي إسلامي ظهر فيه الاتجاه العقائدي للاستشراق في أجلى صورته التي نشرها ، مؤثراً بذلك كله في الفكر العربي الحديث وعلمائه حتى اشترك كثير من (المستغربين) من العرب والمسلمين في الخوض في تاريخ الإسلام وتشريعه كذباً وافتراء عن سوء فهم أو سوء قصد ، وأداروا ظهورهم لمصادر الثقافة الإسلامية وهي القرآن الكريم والحديث النبوي والتاريخ الإسلامي ولولا وجوههم وأفئدتهم شطر المصادر الغربية لحضارة الإسلام يدرسونها ويصدقونها ويتأثرون بها ثم يزعمون زعمها ويفترون افتراءاتها .

وهكذا اختلف الشرقيون في موقفهم من المستشرقين ، فمنهم من يعتد بهم ، ويشق فيهم ، ويزي أن لا بد من الانتفاع بآثارهم ، ومنهم من يحمل عليهم أشد حملة ، ويعنف من يتأثرون بهم أو يأخذون عنهم أشد تعنيف .

وبعد (الأمير شكيب أرسلان) من زعماء الاتجاه الثاني^(٣) المناهض للفكر الغربي (الاستشراقي) فهو يقول : « وعلى كل الأحوال لا يقدر أحد أن يقول أن الشرقيين

١ - د. أحمد سميلوفتش ، رسالة دكتوراه نوقشت بالأزهر في ١٩٧٤/٩/٩ م ، بعنوان (فلسفة الاستشراق) ص ٦٨٢-٦٨٣ .

٢ - د. محمود حمدي زقزوق ، الاستشراق والغلبة الفكرية للصراع الحضاري ، ص ١٠٦ .

٣ - نجيب العقيقي ، المستشرقون ، ج ٣ ص ٦٠٦ ، عز الدين الأمين (نشأة النقد الأدبي الحديث بمصر) ص ١٠٣ .

ليسوا أدري من الغربيين بآداب الشرقيين ولغات الشرقيين ، ولا يقدر أحد أن يدعى أن مرغليوس وغيره من المستشرقين يستطيعون أن يفهموا الكلام العربي أكثر من علماء العرب أهل اللسان الذي نشأوا فيه ، وأن من أحق الحق أن يظن أن مرغليوث لكونه أفرنجياً صار يميز الشعر المصنوع على لسان الجاهلية من الشعر الجاهلي الأصلي ، وأنه صار يظهر له فيهما ما يخفي على مثل سيبويه والخليل والفراء والأخفش والمبرد وابن دريد وأبي على الفارسي وابن جني والزمخشري وأقرانهم» (١)

ويقول الأمير شكيب : «إننا عرفنا كثيراً من هؤلاء المستشرقين بالذات وحادثناهم ونفضنا ما عندهم من علوم واسعة وآراء صائبة ونظرات دقيقة ولمحات عامة وطرق في البحث جليلة ، وأن منهم مؤلفين عظاماً ومنقبين دهاة ، ولكننا لا نتردد في القول إننا لم نجد منهم واحداً - إذا رجعت المسألة إلى العربية - نقدر أن نعده عالماً وأن بقرنه إلى علماء هذه الأمة الحاضرين فضلاً عن الغابرين . وأتذكر أنني لقيت أشهرهم وسمعت منهم الخطأ في العربي ولكننا نظراً لكونهم أجانب عن اللسان نرى قليلهم كثيراً ونغضى على ضعفهم بما يعجبنا من عنايتهم بلساننا وآدابنا» (٢)

وعرض الأمير منهج الأوروبيين في الدراسات الشرقية فيقول : «إنهم يبالغون في القليل ويريدون أن يجدوا لكل حادثة أسباباً غريبة وعللاً لا تخطر على البال .. ولا يزالون يغربون في إيراد الأسباب ويتنوعون في التخرصات والتكهنات ما شاءت خيالاتهم وما طالت تصوراتهم .. فإذا عثروا على حكاية شاردة أو نكتة فاردة في زاوية كتاب قد يكون محرفاً سقطوا عليها تهافت الذباب على الحلواء وجعلوها معياراً ومقياساً ، بل صيروها محكاً يعرضون عليها سائر الحوادث ويغفلون أو يتغافلون عن الأحوال الخاصة والأسباب المستثناة واقتضاء الزمان والمكان» (٣)

«وترى الأفرنجي مع ذلك لا ينظر إلى نزورة معلوماته في الموضوع الذي يطمع أن يحرره ولا إلى قلة بضاعته منه بل يهجم عليه هجوم من قتله علماً وبقرة اطلاعاً ، وتراه

١ - شكيب أرسلان ، مقدمة النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي لمحمد أحمد الغمراوي ، ص ٥٠ و .

٢/٣ - شكيب أرسلان ، المرجع السابق ، ص ٢٠ - ٢١ .

لا يروى خبراً إلا جعل له توجيهها زعم أنه الواقع» (١)

ويرد الأمير كل هذا التهور في تناول الدراسات الشرقية عند الغربيين إلى عداوة الغربي للشرقي «ويرجع كل هذا التهور إلى قلة الاطلاع من الأصل وهذا إذا لم يشب ذلك سوء قصد لأن الغربي لم يبرح عدواً للشرقي ورفيقاً له» (٢)

ويرى شكيب أن أمثلة ذلك من كتابات المستشرقين أكثر من أن تحصى «فلا يكاد يوجد منها كتاب إلا وهو مشحون خلطاً وخبطاً ، مهما يكن من رفعة قدر مؤلفه ومن شهرته في العلم ، وأن الصحيح النادر منها هو الذي خلطه قليل بالقياس إلى غيره» (٣)

«حتى أن (رنان) نفسه وهو من أكبر فلاسفتهم ومن أعلمهم بعلوم الشرق وبلغات الشرق وفلسفة الشرق ، وقد زار بنفسه الشرق وأقام بسورية مدة طويلة تجد له خلطاً عجيباً عن الشرق وأحكاماً خيالية ، وقد وجد من رد عليه وأثبت خلطه ونشر رده باللغة الافرنسية ، ولكن شهرة رنان العظيمة غطت على تلك الفضائح» (٤)

ويؤكد الأمير شكيب أن من الغربيين من لم يتعلم العربية إلا على أمل أن يتتبع العورات ويحفظ المثالب ويتخذ من أعمالنا حجة علينا مثل الأب (لامنس) اليسوعي ، ومثله الدكتور (هارتمان) الألماني ، وقد عرفهما الأمير شكيب ورأى أن مثل هؤلاء لا ينبغي أن يسمع كلامهم في تاريخ العرب والعربية فضلاً عن أن يؤخذ به حجة . (٥)

ويحدد الأمير أسباب أزمة المسلمين فيرى أنها ناتجة عن المرض الذي أصابهم : مرض تلقي أقوال الأوربيين قضايا مسلمة حتى فيما يهرفون فيه بدون معرفة ، ومن هنا نشأ التخبط الذي نتخطه لأن حقائقنا انقلبت ضلالات بلا سؤال ، وضلالات الأفرنج

١ - ٣/٢/١ - شكيب أرسلان ، المرجع السابق ، ص ٢ - ١٥ .

٤ - شكيب أرسلان ، المرجع السابق .

٥ - شكيب أرسلان ، المرجع السابق .

تلقيت حقائق بلا جدال . (١)

كما نبه شكيب أرسلان العلماء والمفكرين من أهل الإسلام لمقاومة دسائس الجمعيات التبشيرية المنبثة في جميع الأقطار الإسلامية تحت أشكال متنوعة ، وكتب يفند مزاعم المستشرق (زويمر) الذي كان من رأيه في طريقة التبشير عدم مجادلة المسلمين بالبراهين العقلية - حيث يعلم أن قلعته ثمرة منيعة - بل الدخول عليهم من الجهة القلبية باستجلاب عواطفهم فقال : «ونحن نجاوب المستر (زويمر) وأمثاله ممن فيهم من هو مقتنع بعمله مبتغ وجه الله في جهده ، إنه إذا كان المقصود دعوة الإسلام إلى الإنجيل فالمسلمون يؤمنون بالإنجيل الشريف وبرسالة المسيح صلوات الله عليه وسلامه ، وإن كانت الدعوة إلى الإنجيل في الظاهر والسيطرة الأوروبية في الباطن فهذا حلم من أحلام المبشرين ، إذ لا بد للإسلام أن يستعصي على هذه الدعوة ويقف في وجهها سداً منيعاً ، وإن كان مقصد هؤلاء المبشرين هو خلاص النفوس والاشفاق من هويها في النار الحاطمة ، والعياذ بالله .

فالأولى بهم أن يذهبوا إلى الوثنيين الذين هم أكثر من المسلمين عدداً في الدنيا ، وأحوج إلى الإرشاد ، بل أن يهدوا الملايين العديدة من أنفس المسيحيين الذين نبذوا الدين ظهرياً ودانوا بالتعطيل والإلحاد وأخذوا يحاربون الكنيسة» (٢)

ويختم شكيب رده على المستشرق (زويمر) المشهور بعداوته للإسلام ، بقوله : «فعلى الإنسان أن يدبر بيته قبل أن يمد يده لتدبير بيت جاره ، أما المسلمون فلا حاجة إلى تبشيرهم لأنهم يعبدون الإله الحق ولا يشركون به أحداً ، ولأن شريعتهم ملأى بالفضائل والآداب ومكارم الأخلاق وإقامة ميزان (العدل) حتى مع العدو ، وتحت على العلم والإنسانية والحضارة وإغاثة الملهوف وحب القريب ، وعند اللزوم تذرف الدموع أيضاً على البائسين» (٣)

١ - شكيب أرسلان ، المرجع السابق .

ولما كانت الشريعة الإسلامية هي الغاية الكبرى من الإسلام فقد كان لابد للاستشراق من توجيه الشبهات إليها ، ومحاولة البحث عن تناقضات يستطيع من خلالها أن يصل إلى هواء ، وهو محاربة الشريعة الإسلامية التي تزرع في قلوب المسلمين روح الإستقلال» (١)

«وقد وضع حقد المستشرقين على الشريعة الإسلامية فيما كتبه كوفن ورينان وجولد زيهير ومرجليوش ولامنس ، وقد حاولوا إيهام المسلمين بأن الشريعة الإسلامية سبب تأخرهم وأنها عائق في سبيل تقدمهم ونهوضهم ، وأثاروا الشبهات حول نصوصها وعرضوا لما أسموه (تطور الشريعة) بتطور العصر وغير ذلك من المحاولات الباطلة التي عرفت عن الشرائع الوضعية التي تحتاج في كل عصر إلى تغيير مع روح العصر بينما الشريعة الإسلامية شريعة ربانية منزلة قد وضعها الشارع الأكبر محققة لقيام مجتمع الأمن والسكينة ، وجعلها ذات أطر واسعة وافية وقادرة على تقبل تغيرات العصور والبيئات ، وهي من أجل ذلك لا تحتاج إلى تطور لأن أسسها الثابتة راسخة البنيان ثم هي راسخة قادرة بعد ذلك على تقبل المتغيرات» (٢)

وقد مر بنا كيف تصدى شكيب أرسلان لشبهة الفصل بين الدين والدولة ، وهي من الدعاوي التي أثارها الاستشراق لمحاولة تصوير الإسلام على هيئة المسيحية الغربية دين عبادي لا صلة له بنظم المجتمع ، ولقد كانت محاولة فصل الدين عن الدولة هي إحدى محاولات النفوذ الغربي الذي فرض على المجتمعات الإسلامية استعمال القانون الوضعي .

ويرى شكيب أن أوروبا تعرف أنه مادام الشرع المحمدي هو مدار العمل عند المسلمين كان هؤلاء يرون خضوعهم للأجانب ذنباً لا يغفره الله لهم إلا بالاستقلال التام وعاراً لا يدحضه إلا طرد الأجنبي المتغلب من المستعمرات التي غلب عليها ، وأية

١ - شكيب أرسلان ، المرجع السابق ج ٣ ص ٣٣٩ .

٢ - أنور الجندي ، محاولة لبناء منهج إسلامي متكامل ، مج ٥ ص ١٩٠ .

مصيبة على أوروبا أعظم من هذه . (١١)

لذلك حاول الإستشراق رمي الشرع الإسلامي بالجمود لجمعه بين السلطتين المادية والدينية ، وبعدم قدرته على مسايرة العصر ، وكانت من أخطر مجادلاتهم الإدعاء بأن الشريعة الإسلامية مأخوذة من القانون الروماني .

ولقد تصدى الأمير شكيب أرسلان لكل هذه التخرصات وبين بطلانها وكذب ما ذهب إليه المستشرقون ومن تأثر بهم وأيدهم من المتفرنجين .

حزب المتفرنجين

ويقصد بهم أولئك (المسلمين الجغرافيين) الذين وافقوا الأوربيين على مزاعمهم - وفي طليعتهم الأتراك الأنقريون شيعة مصطفى كمال ومقلدوهم من أهل مصر - " فذهبوا إلى أن تأخر الممالك الإسلامية وتأخر تركيا إنما جاء عن إختلاط أمور الدين بالدنيا وعن عمل المسلمين بشرع سماوى أرادوا أن ينفذوه مفردا وأن يجعلوه سرمدا وأن يردوا إليه كل شئ ولهذا كان لامندوح للأمم الإسلامية بزعمهم إذا أرادت الرقى فى معارج الفلاح من أن تتبذ هذه الشريعة القديمة البالية التى أصبحت لاتصلح لعصر كعصرنا هذا ولا مفر لها من الأخذ بشرائع وقوانين إنما صلحت لهذا العصر لكونها وضعت بهذا العصر " [١] . ثم ينسخر الأمير شكيب من كلمة هؤلاء المتفرنجين : " نحن لانريد شرعا فيه قال وقالوا ولكن شرعا فيه قلنا ونقول " [٢] . ويبين فساد هذا القول وبعده عن حقائق الأمور لأنه " ليس فى الدنيا شرع ولا قانون يخلو من " قال " و " قالوا " ولا يستقى فى منابعه الى قواعد وأوضاع وأقوال سبقت منذ مئتين من وربما من آلاف من السنين " [٣] . ويقرر الأمير أن الهدف الحقيقى الذى سعى إليه هؤلاء المنتسبون الى الإسلام لم يكن فى مساواة العصر . الحالى كما زعموا بل " ما أرادوا الا " التفرنج " لاغير " [٤] . ويقارن الأمير شكيب بين حال تركيا الإسلامية عندما كانت تعمل بمجلة الأحكام العدلية فى المعاملات المدنية [٥] ، وحال الأتراك عندما أخذوا بقانون سويسرا المدنى وقانون الجزاء الإيطالى البعيد عن غفلتهم ونزوقهم ومنازعهم ومشاربهم ولم يستفيدوا من هذه القوانين شيئا إلا التحيز فى القضاء والصعوبة فى التطبيق حتى أضطروا فيما بعد لتعديلات كثيرة فى هذه القوانين ؛ مما يثبت أن الذى قصده مصطفى كمال ورهطه لم يكن سوى مجرد التفرنج وأن يفهم أوربا أنهم هم نبذوا التقاليد الإسلامية ورموا بالشريعة القرآنية عرض الحائط وأقاموا مقامها قوانين أوربية .

[١] ، [٢] ، [٣] ، [٤] ، [٥] تعليقات الأمير على حاضر العالم الإسلامى ، ج ٣ ص ٣٤٣ وما بعدها
[٥] أواخر القرن الهجرى الثالث عشر جمعت الحكومة العثمانية طائفة من كبار علمائها (هكذا بالأصل والصحيح الثالث عشر) وكلفتهم وضع قانون فى المعاملات المدنية تكون مأجذه الفقه الإسلامى ولو من غير المذاهب المعروفة حتى كان الحكم المأخوذ يتمشى وروح العصر . وقد اجتمع هؤلاء العلماء وسنوا القانون الذى سمي (مجلة الأحكام العدلية) فى سنة ١٢٨٦ هـ وصدر الأمر بالعمل به فى سنة ١٢٩٢ هـ . عن (خلاصة تاريخ التشريع الإسلامى) عبد الوهاب خلاف - ص ١٠٣

وليس أدل على هذا من أن القانون المدنى السويسرى الذى أتخذته تركيا لنفسها يتضمن أصولاً وقواعد ترجع إلى التشريع الرومانى القديم فهى أقدم عهداً من الفقه الإسلامى الذى يزعم مصطفى كمال أنه ألغاه بسبب ترغله فى القدم . "وأما قانون العقوبات الإيطالى الذى أتخذته تركيا لنفسها أيضاً فهو قانون رومانى مسيحى وإيطالى كاثوليكى وفيه من الأوضاع اللاتينية القديمة والأعراف المسيحية الموروثة ما لا ينكره إلا المكابر" [١] . وهكذا يخلص الأمير شكيب إلى الحقيقة التى ينبغى أن تراعى عند اختيار القوانين وهى ألا تكون موافقة للزمان فقط بل للمكان أيضاً .

علاقة الدين بالسياسة فى حضارة الغرب

"ليس فى أوروبا قانون غير متأثر بالتعليم المسيحى والتشريع الرومانى وعليه يكون من الخطأ البين الاعتقاد بأن القوانين الأوربية هى كلها من باب التشريع الإنسانى الصرف وأنه لآمدخل فيها للمبادئ الدينية ويكون تحكماً القول بأن الشريعة الإسلامية وحدها هى التى جمعت بين أحكام الدنيا والآخرة" [٢] . وهذه حقيقة يقررها الأمير وهى أن جميع الشرائع الإنسانىة راجعة إلى أصول دينية وليس الشرع الإسلامى وحده بدعاً فى ذلك أما الإضافات والزيادات التى وضعها البشر فى اجتهادات معلقة على الأصول الدينية، ويستوى فى هذه الحقيقة أتباع الأديان السماوية وغيرهم من أصحاب الأديان الأخرى كديانة سيوا التى هى عقيدة أهل الهند وديانة بوذا التى هى عقيدة أهل الصين ؛ يقول الأمير "ومن طالع الشرائع الإنسانىة عرف أنها بأجمعها سماوية بشرية أى أنها راجعة إلى أصول دينية و اجتهادات بشرية معلقة عليها" [٣] وهذه الأصول الدينية هى التى تكسب الشرائع قدسيته واحترامها من من قبل الناس ؛ وهو ما أشار إليه ابن خلدون نقلاً عن أحد الفلاسفة بأنه لابد للبشر من الحكم

[١] ، [٢] ، [٣] تعليقات الأمير على حاضر العالم الإسلامى ، ج ٣ ص ٣٤٥ ، ٣٤٦

الحكم الوازع ؛ وذلك الحكم يكون بشرع مفروض من عند الله يأتى به واحد من البشر ؛ و أنه لا بد أن يكون متميزاً عنهم بما يودع الله فيه من خواص هدايته ليقع التسليم له و القبول منه ؛ حتى يتم الحكم فيهم و عليهم من غير انكار و لا تزيف .." [١] .

ومن الشبهات التى يردها الأمير أن الإنجيل لم يتعرض لأمر الدنيا فيثبت أنها دعوة غير صحيحة فالإنجيل " ليس كتاب تشريع وإنما هو كتاب مواعظ وآداب أراد بها السيد المسيح صلوات الله عليه تهذيب النفوس وتطهير الأخلاق وإعادة الخلق الى روح الشريعة الموسوية فلم يرد الأتيان بشرع جديد لكنه نبه على وجوب اتباع الشرع القديم فالعهد الجديد إكمال للعهد القديم لانتقض له كما صرح بذلك المسيح نفسه، فيكون الإنجيل أيضاً لم يخرج عن الشرع السماوى" [٢] .

وهكذا يخرج الأمير بحقيقة مؤكدة أن " الشرائع كلها راجعة إلى أصل سماوى ولكن قد فرغ الناس منها بقدر الاستطاعة وبحسب إحتياجهم وبعد التجارب المتعددة ومع مراعاة الأزمنة والأمكنة وأخذ بعض الناس فى هذا عن بعض فكل قبيل قلد قبيلاً فيما هو موافق لحاله ونبذ ما هو غير موافق لحاله وجميع المشترعين إنما يقصدون الفرق بالعباد وحياطة الحق ما أمكن ويرمون الى غرض واحد هو مصلحة الأمة " [٣] .

[١] (٣) مقدمة ابن خلدون، مج ١ ص ٧٢

[٢] كما ذكر ابن خلدون ج ١ ص ٣٤٥ ، وللبقلانى رأى آخر ذكره فى كتاب (التمهيد) يرى فيه أن الخلافة لاتصح

إلا فى قریش - نظام الخلافة ، د. مصطفى حلمى ص ٤٧٠

[٣] رواه أحمد ٢٧٣/٤ وذكره ناصر الدين الألبانى فى سلسلة الأحاديث الصحيحة ج ١ ص ٨.

دفاع الأمير شكيب عن استقلال الشرع الإسلامي وأصالة منبعه

عمل بعض المستشرقين على التشكيك بقيمة التشريع الإسلامي ، ذلك التشريع الهائل الذي لم يجتمع مثله لجميع الأمم في جميع العصور ، لقد سقط في أيديهم حين إطلاعهم على عظمتهم وهم لا يؤمنون بنبوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فزعموا أن فقهاء الإسلام بلغوا من الإخاطة بالنوازل البشرية وتبين وجوه أحكامها ما بلغوه بما أخذوه عن الفقه الروماني ، وقد بين الأمير شكيب أرسلان تهافت هذه الدعوى ، وقال : إن كل من زعم أن الفقه الإسلامي مأخوذ من الفقه الروماني لا يكون أطلع على شيء من تاريخ الرسول صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه ولا التابعين . (١)

ومن بين الغربيين الذين أكدوا هذا الزعم المسيو « غودفروادومومبين » صاحب « تاريخ العالم » الذي يقول في موضوع ثورة إلجم على العرب بعد استقرار الإسلام وإلقائه بجرانه على بلاد الأعاجم : « إن العرب كانوا يرون أنفسهم أعلى درجة من الأمم التي دانت بدينهم ، ولذلك نجد الإسلام نفسه ميز المسلم في القصاص على الذمي ، كما كان الشأن في رومة بالنسبة للبرابرة ، وأما في القضايا المدنية ، فقد كانت أمور أهل الذمة عائدة للقضاة الذين يوليهم الخلفاء ، وهكذا دخلت أمور أهل الذمة في المحاكم الإسلامية ومن هنا كان تأثير القانون الروماني في التشريع الإسلامي دخل شيئاً فشيئاً » (٢)

ويعلق الأمير شكيب أرسلان على هذا النص بقوله : « إن هذه المسألة مما وهم فيه «دومومبين» كغيره من مؤلفي الأفرنج الذين لم يقدروا أن يتتبعوا سير التشريع الإسلامي وكيفية استنباط الفقهاء للأحكام من الكتاب والسنة ، والإجماع والقياس ، فظنوا خطأ أن مأخذ التشريع الإسلامي من القانون الروماني » (٣)

١ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ٢ ص ٢٤٦-٢٤٨ .

٢ - المرجع السابق ج ١ ص ١٧١ .

٣ - المرجع السابق نفسه .

ويستشهد الأمير شكيب في إبطال هذا الإدعاء بشهادة أخصائي (مسيحي) هو (صاوا باشا) الرومي من علماء الحقوق في أيام الدولة العثمانية ، والذي ألف كتاباً بالفرنسية سماه : « نظرية الحقوق في الإسلام »^(١) تناول فيه بالبحث مسألة أخذ التشريع الإسلامي من القانون الروماني ، وينقل « شكيب » عن المؤلف - أعني صاوا باشا - « أنه كان يعتقد هذا الاعتقاد نظير غيره ، وبينى ذلك على ما يعرف من كون بني أمية لبثوا في الشام مدة طويلة يعملون بالأحكام التي كانت باقية من أيام الرومانيين ، فلا عجب في أن يكون هو وغيره قد توهموا أخذ قسم المعاملات في الشريعة الإسلامية من القانون الروماني الذي كان به العمل في سورية ، إلا أنه أحب أن يدرس هذا الموضوع درساً دقيقاً ، ويتعرف كيفية نشوء التشريع في الإسلام فاستنجد بعض علماء أصول الفقه من الأتراك وقرأ الفقه الحنفي جيداً وذكر الكتب التي راجعها أو طالعها ، وتجرد لمعرفة الأمر مدة طويلة ، فوجد هذا الذي معناه أن التشريع الإسلامي مأخوذ من القانون الروماني رأياً ضعيفاً أشبه بأن يكون خيلاً من أن يكون حقيقة »^(٢)

ويعرض (صاوا باشا) في كتابه المقدمات التي بنى عليها العلواء الأوربيون اعتقادهم بأن تشريع فقهاء الإسلام الذين بدأوا التشريع في أيام الخلفاء العباسيين الأوائل إنما هو مجموعة أحكام تضاهي ما كان جارياً به العمل في سورية قبل الفتح الإسلامي ، ويرى أن الأسباب التي حملت على هذا الظن معقولة إلا أن الحقيقة هي غير ما فكروا به في أوروبا .

ويكفي أن ينظر الإنسان إلى هذه المسألة نظر المدقق ويتابع سير الشريعة الإسلامية في تقدمها وفي أطوارها حتى يعلم (استقلال الشرع الإسلامي وأصالته منبعه) وأن هذا ليس من ذاك .^(٣)

«ولاشك أن لكل تشريع منبعاً مختلفاً عن الآخر ، ففقه (يوستينيانوس)^(٤) هو

١/ ٢/ ٣ - حاضر العالم الإسلامي (مراجع سابق) ج ١ ص ١٧١-١٧٣ :

٤ - نسبة إلى الإمبراطور الروماني (يوستينيانوس) .

عمل مبني على العقل السليم البشري ، وقد اصطبغ بالصبغة المسيحية ، وأما فقه الإمام الأعظم فهو مبني على كتاب الله (القرآن) وسنة الرسول ، ولن ترى في الفقه الإسلامي حكماً واحداً غير مدعم على هذا أو هذه . فاختلاف المنبعين لاربع فيه يظهر لكل من درس تاريخ فقه يوستينيانوس وفقه أبي حنيفة» (١)

ولم يكتف هذا المؤلف المصدق - أعني صاوا باشا الرومي - بهذا بل دخل الموضوع كما قال الأمير شكيب أرسلان : «وأورد خلاصة اجتهاد الإمام أبي حنيفة وأصحابه أبي يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني وزفر ثم من بعدهم من الأئمة ولخص تاريخ التشريع الإسلامي ، وبين مأخذة كلها ، وأثبت فلسفة الفقه الإسلامي المعبر عنه بعلم الأصول وقال إنني أدعو من يهمل هذا الموضوع أن لا يحكم فيه قبل أن يطالع هذا التاريخ المتسلسل للفقه الإسلامي مطالعة كافية» (٢)

ويعلق الأمير شكيب أرسلان على كتاب (نظرية الحقوق في الإسلام) هذا فيقول : «وكتاب (صاوا باشا) هو أحسن كتاب قرأته بلغة أوروبية في هذا الموضوع ، والفرق بينه وبين غيره من المؤلفين أنه يبني حكمه على أدلة وبراهين ووثائق ونصوص وحقائق تاريخية وأن أولئك يبنون على ظنون وتخمينات ، وعلى نظر من جهة واحدة ، وعلى قولهم : لا بد أن يكون كذا ، وهناك أسباب تدعو إلى الظن بأنه كذا وكذا ، ومن يدري فقد يكون كذا وكذا ، وهذه أشياء لا تصح أن تكون مداراً للأحكام ، ولا يقال لها (تمحيص) وإنما يقال لها (تخمين) . وما أصدق الآية الكريمة : «إن الظن لا يغني من الحق شيئاً» (٣)» (٤)

١ - المرجع السابق ص ١٧٣ .

٢ - المرجع السابق نفسه ، ويقول الشيخ مصطفى صبري في تعليقه على شهادة (صاوا باشا) هذه : «ولعل احتفاظ صاوا باشا الرومي بدينه وقع احتفاظاً من الله بقيمة شهادته الغالبة للتشريع الإسلامي ، وهو مع هذا أقرب إلى الإسلام بكثير من المسلمين الذين قلدوا الأوروبيين في إثارة الشبهة ضد هذا التشريع باحتمال كونه مأخوذاً من القانون الروماني ، والله لا يضيع أجر المحسنين» (موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين ، ج٢ ص ٢٩٩ هامش) .

٣ - سورة يونس ، آية ٣٦ .

٤ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي (مرجع سابق) ج١ ص ١٧٣ .

وهكذا يرى الأمير شكيب أرسلان في شهادة هذا الباحث المسيحي المدقق (صاوا باشا) شهادة قيمة وعبرة عظيمة لأولي الأبصار ، وضربة قاضية على المرجفين في هذه المسألة ممن لا خبرة لهم بعلمي الفقه وأصول الفقه الإسلاميين ، ومن العجب أن الذين كتبوا فيها من المسلمين تقليداً للأوربيين ما قرأوا الفقه ولا أصول الفقه بقدر ما قرأ صاوا باشا المسيحي العثماني ^(١) ، ولعل فيما قرره مؤتمر القانون المقارن المنعقد في لاهاي من أن الفقه الإسلامي فقه مستقل بذاته ، وليس مستمداً من أي فقه آخر ^(٢) وفي اعتراف المؤتمر الدولي للقانون المقارن بنفاذ الشرع الإسلامي وغزارة ثروة مذهب القانونية ، وتلبيتها حاجات العصر ، وتوضيحه المؤتمر بعقد حلقة للشرع الإسلامي في كل سنة ، وتأليف لجنة لوضع معجم له ييسر تصنيف دائرة معارف فيه (باريس ، يوليو ١٩٥١) ^(٣) ، ما يفحم المتعنتين منهم ، ويقنع المنصفين الذين لا يبغون غير الحق سبيلاً .

ويرى (شكيب أرسلان) أن الشرع الإسلامي هو شرع سماوي باعتبار الأصل وتشريع إنساني باعتبار الإجتهد والتفريع ^(٤) ، وأئمة الإسلام إنما فرعوا على أصليين هما القرآن والحديث ولكنهم أضافوا إليهما الإجماع والقياس فتوسعوا في الفقه ما ندر أن يكون تيسر لغيرهم ^(٥) ، ويحذر الأمير شكيب أرسلان من الخلط في هذه المسألة فما يسميه المسلمون (بالإجتهد) - والذي بلغوا فيه ما لم تبلغه أمة قبلهم ولا بعدهم ^(٦) - لا يشكك في مدى نسبة التشريع الإسلامي إلى الإسلام الأصيل كدين مرجعه القرآن والسنة .

١ - الشيخ مصطفى صبري ، موقف العقل ، (مرجع سابق) ج ٤ ص ٣٠٠ .

٢ - د. مصطفى السباعي ، الاشتقاق والمستشرقون ما لهم وما عليهم ، ص ٢٢ .

٣ - نجيب العتيقي ، المستشرقون ، ج ٣ ص ٥٥٩ .

٤ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ٣ ص ٣٤٣-٣٤٨ .

ـ الاجتهاد لا ينفى الطابع الإسلامى للتشريع

يقول الامير : " لم يكن الدين الاسلامى وحده هو الذى يرجع إلى وحى سماوى بل جميع الشرائع قد بنيت على أصول دينية أو تأثرت بها ". وقد فرق الأمير هذه الأصول الدينية إلى قسمين عبادات ومعاملات " فقسم العبادات متعلق بالبارى تعالى الأزلئ الأبدى الذى لا يتغير فلم يكن من شأن عبادته أن تتغير ولا كان دين من الأديان ولا الدين المسيحى مما جرت العادة أن تتغير أصوله بحسب المكان والزمان " [١] .

" وأما قسم المعاملات فهو وإن كانت له أصول من القرآن والسنة فقد كان فيه مجال الاجتهاد واسعا وكانت مصلحة الأمة هى المحور الذى يدور عليه ذلك الاجتهاد. وأينما تكون المصلحة فثم دين الله " [٢] .

وهذا القسم الثانى يشمل نظام الإدارة والقضاء والسياسة والجباية وتدبير الحرب مما دخل للتعبد والزلفى إلى الله فى فروعه بعد حسن النية فيه — فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم فى زمنه مشترعا فيه باجتهاده مأمورا من الله بمشاورة الأمة فيه [٣] .

ثم يفصل الأمير القول فى مسألة الاجتهاد ، فيبين أن الاجتهاد لا يكون مع وجود النص من الكتاب والسنة ، فإن لم يجد المسلمون النص من الكتاب والسنة ، عملوا بالقياس مع اشتراط بلوغ المجتهد مرتبة فى العلم يصح معها اعطاء رأى " وهذا لا يقدر أحد أن يقول فيه شيئا لأن الاجتهاد له شروط لا يصح بدونها . وليس لكل إنسان أن يجتهد وأن يستنبط أحكاما شرعية . وهذه رتبة عالية جداً لا يرقاها إلا من أحاطوا بالكتاب والسنة ووصلوا إلى الأمد الأقصى من الرواية والدراية ثم عرفوا من أحوال المجتمع البشرى ماتتجلى لهم به وجه المصالح ويظهر مكان سد الذريعة " [٤] .

وقد يزعم الطاعنون فى الشرع الإسلامى أن الشروط التى وضعها علماء الإسلام ليصح الاجتهاد شروط دقيقة ومبالغ فيها مما يقف فى وجه حرية الرأى والعمل به ويزرد الأمير

[١] ، [٢] شبيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامى ج ٣ ص ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩

[٣] الخلافة ، الشيخ محمد رشيد رضا ، ص ١٠٣

[٤] حاضر العالم الإسلامى ج ٣ مج ٢ ص ٣٤٩

الأمير هذا الزعم فعلماء الإسلام لم يمنعوا العمل بالرأى لافى القديم ولا فى الحديث ؛ وغاية ما فى الأمر أنهم اشتراطوا فى الرأى بلوغ مرتبة من العلم يصح بها اعطاء الرأى " وأما الرأى فى نفسه لمن قدر عليه فلم يمنعه أحد وكل رأى اتفقت عليه الأمة اجازوه وقالوا إن الأمة لاتتفق إلا على صواب واستكلوا على جواز العمل برأى الأمة بقوله تعالى : " وأمرهم شورى بينهم " [١] .

صلاحية الشرع الإسلامى لكل زمان و مكان و واجب علماء المسلمين

يرى الأمير شكيب أن هجوم أعداء الإسلام على الشريعة الإسلامية ، واتهامهم إياها بالجمود وبأنها لاتلتوى مع الوقت وبأنها لاتسع لجميع الحوادث وبأنها قد تخالف المصلحة وقد يضطر المسلمون إلى ترك المصلحة من أجلها وغير ذلك مما ترمى به الشريعة ظلماً وعدواناً [٢] ؛ إنما يعود كل هذا الهجوم لسببين أساسيين ؛ أولهما : الجهل بالشرع الإسلامى ومرونته التى تجعله مناسباً لجميع الأمكنة والأزمنة ، سواء أكان الجهل ناتجاً عن عدم إدراك الطاعنين لجوهر الإسلام أو كان ناتجاً عن عدم رغبتهم فى الإدراك وتعتنتهم . والسبب الثانى يرجع لتقصير علماء المسلمين فى بيان حقيقة الإسلام وجمودهم وعدم قدرتهم على الدفاع عنه بما تقتضيه حالة هذا العصر .

" فمن نظر إلى الكليات الفقهية مثل قولهم : العرف قاض والعادة محكمة ولا ينكر تبدل الأحكام بتبدل الأزمان والضرورات تبيح المحظورات ، وإذا ضاقت الأمور اتسع ومارأه المسلمون حسناً فهو حسن وعلم أن المذاهب الأربعة الحنفى والشافعى والمالكى والحنبلية قد أجازت العمل بالمصلحة المرسلّة أدرك من مرونة الشرع الإسلامى ومن سعة مذاهبه ومن تنزله على كل الحوادث ومن مناسبته لجميع الأمكنة والأزمنة ما لا يدركه الجاهل ولا يريد أن يدركه المتعنت " [٣] .

[١] المرجع السابق ج ٣ مج ٢ ص ٣٤٩

[٢] حاضر العالم الإسلامى ج ٣ مج ٢ ص ٣٤٨

[٣] شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامى ج ٣ مج ٢ ص ٣٤٨ ، ٣٥٠

ولاشك أن جمود بعض فقهاء الشرع الإسلامى وشدة تعصبهم لكل شيء قد سبق العمل به وشدة نفورهم من كل أمر يحدث ولو لم يكن فيه منافاة للشرع وعدم إجازتهم العمل إلا بما علموه ولو كانت المصلحة المتعينة تقتضى خلافه وتهاقنهم على الجزم بحرمة ما لم تثبت حرمة برغم ماورد من التشديد والتدبير على كل من يقول بالحلال والحرام بغير علم كل هذا قد اتخذته أعداء الإسلام حجة على الشريعة الإسلامية" [١] .

ثم يرد الأمير حجج الطاعين فى الإسلام مؤكداً حقيقة (إن الشريعة الإسلامية لايمكن أن تخالف المصلحة) [٢] وذلك لأن الشريعة جاءت لمصالح العباد والله لا يشرع لهم إلا ما ييسر أمورهم ولا يجعل عليهم فى الدين من حرج ، هذا إذا كانت المصلحة حقيقية لايمكن أن تخالف الشريعة وما يقال أنه مخالف منها للشريعة فغير معترف بكونه مصلحة ، " فإن تعيين المصلحة ليس بالأمر السهل وقد يظن بعضهم المصلحة فى شيء يظن غيرهم أنها فى خلافه لاختلاف الذوق وقد يجمع أكثر الأمم على اصطلاحات وعادات هى فى الواقع مخالفة للمصلحة مثل اجماعهم على الربا الذى مهما يكن من عمل العالم المتمدن به فليس هو من المصلحة الحقيقية فلا يجوز أن يقال إن تحريم الشرع إياه مخالف للمصلحة وأما المصلحة الحقيقية فلا يمكن أن يأتى الشرع بضدها " [٣] .

وبناء على القاعدة السابقة ينطلق الأمير فى رده على من قد يقول إن حرية الرأى فى الفقه الإسلامى مقيدة بالكتاب والسنة ، بمعنى أن الرأى لايصح إلا إذا كان ضمن دائرة الإسلام ولم يصادم الكتاب والسنة ، ويعجب الأمير ممن يقول مثل هذا لأن قائله يفترض أن القضاء لا يكون موافقاً للمدنية العصرية إلا إذا كان غير مقيد بالكتاب والسنة و الأمير يرى أن هذا الإفلات ليس بضرورى أصلاً إذا كان الكتاب و السنة لا يأمران إلا بما فيه المصلحة ولا يحملان الناس على ما فيه ضررهم [٤] .

تعقيب :

الدين الإسلامى هو الرسالة الخاتمة ، ولقد جاء الرسول صلى الله عليه وسلم بشريعات ربانية واجب كل الوجوب التحاكم اليها كما بين الله تعالى فى القرآن الكريم المهمة التشريعية للكتب السماوية وعلاقتها ببعضها ووجوب الحكم بما فيها وعواقب الإعراض عنها وهيمنة القرآن عليها . قال تعالى فى سورة المائدة :

" إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما أوتوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ، وكتبنا عليهم فيها ان النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالآذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ، وقفنا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وأتينا الأنجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين ، ولحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ، وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيئاً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليلبذلكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ، وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون ، أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون " [١] .

إشتراط القرشية فى الخلافة

اجتهد فقهاء السياسة الشرعية فى وضع مواصفات ينبغى أن يتصف بها الأمير بناءً على حقوقه وواجباته، ذكرها الماوردى فى الأحكام السلطانية فقال : وأما أهل الإمامة فالشروط المعتبرة فيهم سبعة : أحدها العدالة على شروطها الجامعة والثانى العلم المؤدى إلى الاجتهاد فى النوازل والأحكام والثالث سلامة الحواس من السمع والبصر واللسان ليصح معها مباشرة ما يدرك بها والرابع سلامة الأعضاء من نقص يمنع عن استيفاء الحركة وسرعة النهوض والخامس الرأى المفضى إلى سياسة الرعية وتدبير المصالح والسادس الشجاعة والنجدة المؤدية إلى حماية البيضة وجهاد العدو والسابع النسب وهو أن يكون من قریش لورود النص فيه وانعقاد الإجماع عليه [١] .

وعلى الرغم من وقوع الإجماع على اشتراط القرشية فى الخلافة ، وورود كثير من الأحاديث الصحيحة تشير إلى شرط النسب فى الإمام ، إلا أننا لا نعلم خلافاً على شرط من شروط الإمام وصفاته مما لم يرد فيه نص ، كالاخلاف حول هذا الشرط الذى وردت نصوص كثيرة فيه [٢] .

والحق أن أسباب اختلاف الفقهاء حول هذا الشرط ترجع إلى أسباب كثيرة منها اختلافهم فى صحة الأحاديث بسبب تعدد الدلالات أو تفاوت مدارك الناظرين فيها، ومنها تعدد الروايات وتعارضها أحيانا وموقف العلماء من هذا التعارض بالتأويل والتوفيق أو القول بالنسخ أو بترجيح رواية على أخرى .

وقد أشار ابن خلدون إلى خلاف العلماء حول شرط النسب فقال : "ومن القائلين بنفى اشتراط القرشية القاضى أبو بكر الباقلانى لما أدرك عليه عصبية قریش فى التلاشى والاضمحلال واستبداد ملوك العجم على الخلفاء فأسقط شرط القرشية وإن كان موافقاً لرأى الخوارج لما رأى عليه حال الخلفاء لعهدہ. وبقي الجمهور على القول بإشتراط وصحة

[١] الأحكام السلطانية ص ٦

[٢] محمود المرداوى ، الخلافة بين التنظير والتطبيق ص ١٠١

الإمامة للقرشي ولو كان عاجزاً على القيام بأمور المسلمين ، ورد عليهم سقوط شرط الكفاية التي يقوى بها على أمره . لأنه ذهبت الشوكة بذهاب العصبية فقد ذهبت الكفاية وإذا وقع الإخلال بشرط الكفاية تطرق ذلك أيضاً الى العلم والدين وسقط اعتبار شروط هذا المنصب وهو خلاف الإجماع " [١] .

والأمير شكيب أرسلان يرى أن روح الإسلام الحقيقي هي مراعاة الكفاية والأهلية دون أى اعتبار آخر ولهذا فإن الأمير لا يذهب إلى مذهب إليه الجمهور من اشتراط القرشية في الخلافة لأنه يرى : " أن حصر الإمامة في أسرة أو عائلة أو عشيرة لا ينطبق على هدى الخلفاء الراشدين الذين كان يمكن كلا منهم أن يعهد بالأمر لولده ، والحال أنهم لم يفعلوا ذلك " [٢] .

" فلا أبو بكر فكر في العهد لمحمد بن ابي بكر ، ولا عمر فكر في العهد لعبد الله بن عمر ، ولولا خروج معاوية على علي لكان علي أيضاً اقتدى بهم في إختيار من هو الأصلح لأمر الأمة " [٣] .

ويستشهد الأمير شكيب أرسلان على أن حصر الخلافة في قریش ليس أمراً محتملاً بقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه : " لو أدركنى أحد رجلين فجعلت هذا الأمر إليه لوثقت به ، سالم مولى أبى حذيفة وأبى عبيدة بن الجراح " ويعلق الأمير بأن سالم كان من الأعاجم كما لا يخفى ! " [٤] .

ولقد ذكر ابن خلدون أن قول عمر هذا لا تقوم به حجة لأن مذهب الصحابي ليس بحجة ، وأيضاً فمولى القوم منهم ، وعصبية الولاء حاصلة لسالم في قریش ، وهى الفائدة فى اشتراط النسب على مذهب إليه ابن خلدون - ، ولما استعظم عمر امر الخلافة ورأى شروط كأنها مفقودة فى ظنه ، عدل الى سالم لتوفر شروط الخلافة عنده فيه ، حتى من النسب المفيد للعصبية كما نذكر ، ولم يبق إلا صراحة النسب فرآه غير محتاج إليه ، إذ الفائدة فى النسب إنما هى العصبية وهى حاصلة من الولاء فكان ذلك حرصاً من عمر رضى الله عنه على النظر للمسلمين وتقليد امرهم لمن لا تلحقه فيه لائمة ولا عليه فيه عهده " [٥] .

[١] مقدمة ابن خلدون مج ٢ ص ٦٩٤ ط ٢ لجنة البيان العربى

[٢] ، [٣] ، [٤] تعليقات الأمير على مقدمة ابن خلدون ج ١ ص ٢٦ ، ٢٧

[٥] تعليقات الأمير على ابن خلدون ج ١ ص ٢٧

وقد رد الأمير شكيب على هذا بأن عمر بن الخطاب وإن لم يكن معصوما فهو الذى روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال فى حقه " لو كان نبي بعدى لكان عمر " . فهو صحابى ولكن ليس كغيره من الصحابة ولقد منع عمر المتعة واحتج بعمله الفقهاء من أهل السنة . وعلى كل حال لم يكن عمر بالذى يخفى عليه حكم الشرع فى مسألة هى أجل المسائل [١] .

ومن أشهر الأدلة التى يتمسك بها المشترطون للنسب القرشى لمنصب الخليفة هو إجماع الصحابة على ذلك يوم السقيفة وأن قريش احتجت على الأنصار لما هموا يومئذ ببيعة سعد بن عباد و قالوا : " منا أمير ومنكم أمير " بقوله صلى الله عليه وسلم " الأئمة من قريش " ؛ و بأن النبی صلى الله عليه وسلم أوصانا بأن نحسن إلى محسنكم و نتجاوز عن مسيئكم ، ولو كانت الإمارة فيكم لم تكن الوصية بكم فحجوا الأنصار ، ورجعوا عن قولهم منا أمير ومنكم أمير ، وعدلوا عما كانوا هموا به من بيعة سعد لذلك [٢] .

ولكن الأمير شكيب أرسلان يرى فى هذه الرواية أيضاً ما يدعو إلى تأييد رأيه بعدم اشتراط القرشية لأن سعد بن عباد ورهطه من الأنصار لم يكونوا بالذين يمارون قريشاً فى أمر الإمامة لو كانوا يعلمون أنها لا يجوز أن تتعدى قريشاً [٣] .

أما الحديث الشريف الذى يستند عليه من يقولون بحصر الخلافة فى قريش " الأئمة فى قريش " فيرى الأمير أن هذا جاء فى زمن كانت الرئاسة فيه لقريش فكانت أولى بهذا الأمر من غيرها ، وكانت العرب فى قريش فى صدر الإسلام تطيعها ما لاتطيع سواها . ولا ينبغى من ذلك أن هذا الأمر يجب أن يكون أبداً سرمداً فى قريش مهما تقلبت الأحوال وتبدلت الأطوار ، وما دامت تطلع الشمس ، وما بل بحر صوفة " [٤] .

ولا يكتفى الأمير شكيب برد الأستشهاد بهذا الحديث على أنه لا يحمل الأمر بالوجوب وغاية ما فى الأمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان " يقيم " حال العرب ومكانة قريش فيهم فى الجاهلية والإسلام ، بل يذهب الأمير الى اتهام الفقهاء المثبتين للنسب القرشى

[١] تاريخ العلامة ابن خلدون - دار الكتاب اللبنانى ج ١ ص ٣٤٤-٣٤٥

[٢] ابن خلدون (المرجع السابق) ج ١ ص ٣٤٣

[٣] تعليقات الأمير على ابن خلدون ج ١ ص ٢٧

[٤] تعليقات الأمير على ابن خلدون ج ١ ص ٢٧

بناءً على هذا الحديث باجتراء جزء من الحديث وإهمال جزء فيقول :

" وما بالهم لا يذكرون أنه جاء في رواية هذا الحديث: " الأئمة من قريش ما أقاموا الدين " وجاء هذا الحديث في بعض المساند التي يعول عليها مثل صحيح مسلم . فإن كان حصر هذا الأمر في قريش معلقاً بهذا الشرط؛ فيكون قد انحل الإشكال " [١] .

فالأمير شكيب أرسلان لا ينازع في كون قريش الأولى بالإمامة من غيرها من عرب وعجم وإنما ينازع في حصر الخلافة في قريش الإسلامية في القرشي مع ضعفه وإقصاء غير القرشي عنها مع كفايته ورجحانه ، ولذلك فهو يرى في اشتراط إقامة الدين والقدرة على ذلك حلاً للإشكال ، فإن تحقق هذا الشرط في القرشي فهو أولاً بمكانه من قرابة الرسول عليه السلام ، ومن رئاسته القديمة :-

والحق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقر الإمامة لقريش في حديثين شريفيين ، وأمر بعدم معاداتهم ومنازعتهم ، وشرط عليهم شروطاً أحد هذين الحديثين رواه البخاري في صحيحه قال: " حدثنا أبو ليثان أخبرنا شعيب عن الزهري قال كان محمد بن جبير بن مطعم يحدث أنه بلغ معاوية وهو عنده وفد من قريش أن عبد الله بن عمر يحدث أنه سيكون ملك من قحطان فغضب فقام فأتى على الله بما هو أهله ثم قال : " أما بعد فإنه بلغني أن رجلاً منكم يحدثون أحاديث ليست في كتاب الله ولا تؤثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأولئك جهالكم فإياكم والأمانى التي تضل أهلها فإن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ان هذا الأمر في قريش لا يعاديه أحد إلا كبه الله على وجه ما أقاموا الدين " [٢] . والثاني : ما رواه أحمد بن حنبل في مسنده : " الأئمة في قريش ما حكموا فعدلوا ووعدوا فوفوا . وأسترحموا فرحموا " [٣] .

والحديثان يشيران إلى أن هذا الأمر أى الإمامة والخلافة باقية في قريش فإن نازعهم عليه منازع قهر وفشل وخذله الله ولكن ذلك بشروط هي في حديث البخاري ما أقاموا الدين . وهي في حديث أحمد ما حكموا فعدلوا ووعدوا فوفوا وأسترحموا فرحموا . وبهذه الشروط التي ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم لاستمرار الخلافة في قريش

[١] تعليقات الأمير على ابن خلدون ج ١ ص ٢٧

[٢] صحيح البخاري ج ٩ كتاب الأحكام ص ٧٨

[٣] مسند أحمد ٢/ ٢٧٠ ، ٤/ ٤٢٤ .

ينحل الإشكال - كما قال الأمير شكيب - فلئن كان الشرط في حديث البخاري " إقامة الدين " شرط استمرار الخلافة فيهم، فإن الشروط في حديث أحمد أوصاف لحالهم عندما لا يقيمون الدين فما يلزم عدم إقامة الدين في الحكم أنتفاء العدل في الحكم وعدم الوفاء بالوعد، والقسوة والبطش وعدم الرحمة للمسترحم .

وهذا يتلائم مع روح الإسلام التي حرث الأمير شكيب أن يبينها فقال إن "روح الإسلام المبني على قاعدة (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وعلى قاعدة (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) فليس في الإسلام طبقات كما هي عند البراهمة ؛ الدين في هذه الطبقة والحكم في تلك الطبقة، والصناعة في هاتيك الطبقة.. الخ، وليس الإسلام في شيء من مشابهة اليهودية في أن الملك في السبط الفلاني، وأن الكهنوت هو في السبط الفلاني .. الخ فكل هذه الأوضاع لا يعرفها الإسلام، ولا يعرف إلا عمل الإنسان نفسه " [١] .

ويستشهد الأمير بقول عمر رضي الله عنه : " لو جاءت الأعاجم بالأعمال وجئنا بغير عمل فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة ، فلا ينظر رجل الى القرابة، وليعمل لما عند الله، فمن قصر به عمله لا يسرع به نسبه " [٢] .

ويستكر الأمير شكيب بعد قول عمر هذا أن تكون الشريعة التي يقول عمر فيها مثل هذا القول هي الشريعة التي تجعل الإمامة أرثا خاصاً بعشيرة خاصه الى أبد الدهر، مهما كان في الخارج عنها من كفاية تزيد عن كفايتها، وقدرة على حفظ بيضة الإسلام ترحج على قدرتها [٣] .

فالإمامة في قريش خاضعة لنواميس الكون التي جعلها الله في مخلوقاته، فالله ينعم على المخلوق بنعمه حتى إذا فسد وطغى وظلم وعصى أخذه الله، وقد روى أحمد في مسنده قول الرسول صلى الله عليه وسلم " أما بعد يامعشر قريش فإنكم أهل هذا الأمر ما لم تعصوا الله، فإذا عصيتموه بعث إليكم من يلحكم كما يلحي هذا القضيب لقضيب في يده ثم لحى قضيبه فإذا هو أبيض يصلد " [٤] ، ولعل في مدلول هذا الحديث أن الله سبحانه جعل الإمامة في قريش لتأخذها بحقها وإلا عاقبها ببعث من يلحها أو يزيلها كما يلحي أو يزال قشر القضيب، على أن هذه الأحاديث تدل فيما تدل عليه أن الخلافة ستستمر في قريش ما اتصفت

[١] ، [٢] ، [٣] تعليقات الأمير علي ابن خلدون ج ١ ص ٢٨

[٤] مسند أحمد ج ٦ روايه رقم ٤٣٨٠

بصفات واتسمت بسمات منها إقامة الدين، ومنها طاعة الله وعدم عصيانه ومنها العدل في الحكم والوفاء والرحمة، فإن سقطت تلك الصفات من قريش نزع الملك منها وما عادت الخلافة فيها .

وهذا ما ذهب إليه الأمير شكيب في قوله: "ولأن الذين أشرطوا القرشي في الخلافة استذكروا الأمر بقولهم: أنه إذا تساوى القرشي وغير القرشي في الإستئصال على شروط الخلافة فالقرشي بمكانه من قرابة الرسول عليه السلام ، ومن رئاسته القديمة؛ أولى من غير القرشي لهان الخطب ، ولكن مقتضى كلامهم أن القرشي بسطان ذلك الحديث المتعلق بقريش في عهد كانت فيه هي الأول - مهما بلغ من الضعف ومن عدم الكفاية - فإنه أولى من غير القرشي مهما بلغ من القوة على حفظ حوزة الإسلام، ومهما بلغ من الضلالة والكفاية. فهذا الذي نراه مخالفاً لروح الشرع، ولما يتجلى من جميع أحكام الكتاب والسنة " [١] .

ولئن كان حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم "الأئمة من قريش" قد يفهم منه الأمر وقد يفهم منه مجرد الإخبار فإن قرينه "ما" الظرفية في قوله صلى الله عليه وسلم: "مأقاموا الدين" و"ماحكموا فعدلوا ووعدوا فوفوا واسترحموا فرحموا" ترجح المفهوم الثاني أى مجرد الإخبار والتنبؤ إذ تنفى الإمامة من قريش بإنتفاء شرطها منها فكان ذلك الحديث لو صح على ما رويته وارتفعت فيه كل شبهة مطابقة لحالة قريش في أيام تقدمها ، فأما من بعد أن غلبت الأعاجم ، وقام فيها من رجح ميزانه على قريش في القوة والمنعة رجحاناً محسوساً لا يمتري فيه عاقل ، فقد أصبح من العبث أن نجعل المرجوح أولى من الراجح" [٢] . وهكذا يذهب الأمير شكيب الى سقوط شرط القرشية في الخلافة بسقوط صفات الأهلية من قريش ووجوب جوازها في غيرهم إذا وجد من المسلمين من هو أجدر منهم على إقامة الدين .

ويستند الأمير على قاعدة ابن خلدون في العصبية لتأييد ما ذهب إليه، ويرى أن ابن خلدون قد جمع فأوعى في هذه المسألة وجاء فيها بالقول الذى لا يحسن معه الميراء عندما قال في مقدمته: "إذا ثبت أن إشتراك القرشي إنما هو لدفع التنازع بما كان لهم من العصبية والغلب ، وعلمنا أن الشارع لا يخص الأحكام بجيل ولا عصر ولا أمة ؛ علمنا أن ذلك إنما هو

[١] تعليقات على ابن خلدون ، (المرجع السابق) ج ١ ص ٢٨

[٢] المرجع السابق عن ابن خلدون ج ١ ص ٢٤٦ ، ٢٤٧

من الكفاية فرددناه إليها وطردنا العلة المشتملة على المقصود من القرشية وهى وجود العصبية فأشترطنا فى القائم بأمر المسلمين أن يكون من قوم أولى عصبية قوية غالبية على من معها فى عصرها ليستتبعوا من سواهم ، وتجتمع الكلمة على حسن الحماية ولا يعلم ذلك فى الأقطار والآفاق كما كان فى القرشية إذ الدعوة الإسلامية التى كانت لهم كانت عامة، وعصبية العرب كانت رافية، فغلبوا سائر الأمم، وإنما يخص لهذا العهد كل قطر بمن تكون له فيه العصبية الغالبة " [١] .

" وإذا نظرت سر الله فى الخلافة لم تعد هذا، لأنه سبحانه إنما جعل الخليفة نائباً عنه فى القيام بأمر عباده ليحملهم على مصالحهم ، ويردهم عن مضارهم ، وهو مخاطب بذلك ولا يخاطب بالأمر إلا من له قدرة عليه . ثم إن الوجود شاهد بذلك ، فإنه لا يقوم بأمر أمة أو جيل إلا من غلب عليهم، وقل أن يكون الأمر الشرعى مخالفاً للأمر الوجودى " [٢] .

وبناءً على قاعدة ابن خلدون فى العصبية يطمئن الأمير شكيب إلى أنه وصل الى القول الفصل فى مسألة اشتراط النسب فى الخلافة بأن هذا الدين لم يقم بالأسرار غير المفهومة، ولم يمتحن أتباعه بما تعى به العقول ولا بما لا تظهر فيه وجوه المصالح، فكل معترك هذه المسألة من وجهة نظر الأمير " هى القدرة على حماية الإسلام وإقامة الشريعة على وجهها ، فمن كان أضلع بهذا الأمر من غيره بين المسلمين فهو الذى يريده الله ورسوله قياساً على ما لدينا من قواعد الشرع الأخرى التى هى ومبادئ العقل توأمان متلازمان " [٣] .

[١] ، [٢] المرجع السابق عن ابن خلدون ج ١ ص ٣٤٦ ، ٣٤٧

[٣] تعليقات الأمير شكيب على ابن خلدون ج ١ ص ٢٩

تَعْقِيب

ويجدر بنا أن نسأل هل كان الأمير شكيب بموقفه من اشتراط النسب يهدف إلى تصحيح خلافة بنى عثمان انطلافاً من نزعتَه العثمانية المعروفة عنه ؟ .

وما نراه حقاً أن العصر الذى عاش الأمير فيه هو الذى دفعه إلى الإجتهد فى فهم الحديث أو بترجيح روايه على اخرى، فلقد شهد الأمير انقطاع ملك قريش بعد أن صار الأمر إلى سلاطين العثمانيين وأصبحت الدعوة إلى رد الأمر إلى قريش أو الخروج على العثمانيين تهدد الأمة فى وحدتها وتعين المستعمر الأجنبى على هدم دولة الإسلام وهى أحوال قريية الشبه بالأحوال التى دفعت القاضى أبو بكر البقلان إلى نفي اشتراط القرشى لما أدرك عليه عصبية قريش من التلاشنى والاضمحلال واستبداد ملوك العجم على الخلفاء فأسقط شرط القرشية وإن كان موافقا لرأى الخوارج لما رأى عليه حال الخلفاء لعهد [١] .

والأمير لم يكن ليكتف شرط القرشية أو يمارى فيه إذا ثبت عنده بما لايقبل الشك أن الأمر فيه كان الوجوب، بل مازال الأمير متشككاً فى الرواية متأولاً للمعنى مستنداً إلى آراء علماء سابقين لهم مكانتهم وإحترامهم فى الفكر الإسلامى .

وأخيراً فإن الأمير لايقطع بأن أمر الخلافة لن يعود لقريش بل يرى أن القرشى أولى من غيره إن ضارت قريش قادرة على إقامة الدين، ولابد أن يختم الله لهذه الأمة بالخلافة على منهاج النبوة كما فتح لها بالنبوة كما بين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فى الحديث الشريف " تكون النبوة فيكم ما شاء الله لها أن تكون ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ثم تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ثم تكون ملكاً جبرياً فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، ثم سكت " [٢] .

[١] كما ذكر ابن خلدون ج ١ ص ٣٤٥ ، و للبقلانى رأى أخر ذكره فى كتاب (التمهيد) يرى فيه ان الخلافة

لا تصح إلا فى قريش - نظام الخلافة ، د. مصطفى حلمى ص ٤٧٠ .

[٢] رواة أحمد ٢٧٣ / ٤ وذكره ناصر الدين الألبانى فى سلسلة الأحاديث الصحيحة ج ١ ص ٨ .

الباب الثاني

الآراء الكلامية عند الأمير شكيب أرسلان

الفصل الاول

٢- موقف الأمير شكيب أرسلان من عقيدة القضاء والقدر

يناقش الأمير عقيدة " القضاء والقدر " التي يرجع إليها " الجامدون " [١] أسباب تخلف المسلمين وتقدم الكافرين عليهم . فيرى أن تفسير القدر بالجبر تفسير فاسد حبيب الكسل إلى كثير من المسلمين وجعلهم أعضاء مشلوله في جسم المجتمع الإسلامي، وهو الخلق الذي جعل (الافرنج) يقولون أن الإسلام جبري لا يأمر بالعمل لأن ما هو كائن هو كائن، عمل المخلوق أم لم يعمل [٢] .

ويسوق الأمير طائفة من الآيات القرآنية التي تربط الثواب والعقاب والفوز والفشل بالعمل الذي يعمل به المكلف ويرى فيها الدليل الواضح على إبطال تفسير القدر بالجبر .
والأمير شكيب يهدف من مناقشته لعقيدة القدر أن يحافظ على إظهار مسئولية المسلمين الخلقية والاجتماعية والدينية والسياسية عن واقعهم ، وفي نفس الوقت ينفي عن الإسلام اتهام الغربيين له بالجمود والتفويض والتسليم فيبين أن التسليم لله إذا كان مقرونا بالعمل فإنه يكون أنفع في الدنيا والأخرة، " والذي يريده الإسلام إنما هو أن يعقل الإنسان ويتوكل وان يدبر لنفسه بهداية عقله الذي جعله الله مرشداً، ويعلم مع ذلك أن ليس كل الأمر بيده، وأن من الأقدار ما لا تدركه الأفكار وهذا صحيح " [٣] ويستشهد الأمير بأن النبي صلى الله عليه وسلم لما ذكر القدر سأل بعض أصحابه ألا تنتكل ؟ فقال : اعملوا فكل ميسر لما خلق له .

(١) الجامدون : هم العاجزون عن الإجتهد في المسائل الشرعية بما يتفق والحاجات المتجددة للمسلمين . عن (د)

مصطفى حلمي - الخلافة ص ٥٢٢)

(٢) لماذا تأخر المسلمون / شكيب أرسلان ص ١٠٤

(٣) المرجع السابق ص ١١٠

وشكيب فى موقفه من القدر متأثر باستاذة الإمام محمد عبده الذى كان يفرق بين مذاهب (الجبر) وبين معنى القدر، فكتب يدحض شبهة من سوى بينهما، ويبين ما كان للإيمان بالقضاء والقدر من التأثير العظيم فى رفعة المسلمين، ويقول الإمام : " اعتقد الاقرب انه لافرق بين الاعتقاد بالقضاء والقدر وبين الاعتقاد بمذهب الجبريين، القائلين بأن الإنسان مجبور محض فى جميع أفعاله وتوهموا أن المسلمين بعقيدة القضاء يرون أنفسهم كالريشة معلقة فى الهواء تقلبها الرياح كيفما تميل. ومتى رسخ فى نفوس قوم أنه لا خيار لهم فى قول ولا عمل ولا حركة ولا سكون، وأنما جميع ذلك بقوة جابرة ، وقدره قاصرة، فلا ريب تتعطل قواهم ، ويفقدون ثمرة ما وهبهم الله من المدارك والقوى، وتمحى من خواطرهم داعية السعى والكسب، وأجدر بهم بعد ذلك أن يتحولوا من عالم الوجود إلى عالم العدم" [١]

" وهكذا ظنت طائفة من الفرنجه، وذهب مذهبها كثيرون من ضعاف العقول فى المشرق ولست أخشى أن أقول : كذب الظان ، وأخطأ الواهم ، وبطل الزاعم وافترؤا على الله والمسلمين كذبا - لا يوجد مسلم فى هذا الوقت من سنن وشيعى وزيدى واسماعيلى ووهابى وخارجى يرى مذهب الجبر المحض، ويعتقد سلب الاختيار عن نفسه بالمرة، بل كل من هذه الطوائف المسلمة يعتقدون بأن لهم جزاء اختياريًا فى أعمالهم ويسمى بالكسب، وهو مناط الثواب والعقاب عند جميعهم، وأنهم محاسبون بما وهبهم الله من هذا الجزاء الاختياري ، ومطالبون بامتثال جميع الأوامر الإلهية، والنواهي الربانية، الداعية إلى كل خير، الهادية إلى كل فلاح، وأن هذا النوع من الاختيار وهو مورد التكلف الشرعى، وبه تتم الحكمة والعدل " [٢]. ويبين الإمام الأثر الطيب الذى يتركه الإيمان بالقضاء فى نفوس المسلمين المؤمنين به من علو الهمة، وبث روح الشجاعة فى نفوسهم على نحو تصغر عندها العظائم، وتهون عليها مصارعة الشدائد فيقول الإمام :

" الاعتقاد بالقضاء والقدر إذا تجرد من شناعة الجبر يتبعه صفة الجراءة والإقدام وخلق الشجاعة والبسالة ويبعث على اقتحام المهالك التى ترجف لها قلوب الأسود هذا الانطباع يطبع الأنفس على الثبات واحتمال المكاره ومقارعة الأهوال، ويحليها بحلى الجود والسخاء ويدعوها الى الخروج من كل ما يعز عليها، بل يحملها على بذل الأرواح والتخلى عن

نظرة الحياة ، كل ذلك فى سبيل الحق الذى دعاها إلى الاعتقاد بهذه العقيدة " [١] .
 "والذى يعتقد بأن الأجل محدود، والرزق مكفول، والأشياء بيد الله يصرفها كيف يشاء،
 كيف يرهب الموت فى الدفاع عن حقه وإعلاء كلمة أمته، أو ملته، والقيام بما فرض الله
 عليه من ذلك، وكيف يخشى الفقر مما ينفق من ماله فى تعزيز الحق وتشييد المجد على
 حسب الأوامر الإلهية، وأصول الاجتماعات البشرية " [٢] . ثم يقول الإمام : " بهذا الاعتقاد
 لمعت سيوفهم بالمشرق وانقضت شهبها على الحيارى فى هبوات الحروب من أهل المغرب،
 وهو الذى حملهم على بذل أموالهم وجميع ما يملكون من رزق فى سبيل إعلاء كلمتهم
 لا يخشون فقر ولا يخافون فاقة " [٣] . والإمام يؤكد أن الله أمتدح المسلمين بهذا الاعتقاد مع
 بيان فضله فى قول الحق (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم
 إيماناً، وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء
 واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم) [٤] . وهذه الآية الكريمة تشير إلى موقف
 المسلمين فى غزوة أحد و هى نفس الغزوة التى استشهد الأمير شقيب أرسلان بما كان من
 المسلمين فيها ؛ و ما أصابهم نتيجة مخالفتهم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم للرماة
 لتأكيد ما ذهب إليه بان الإسلام هو دين العمل لا دين الكسل ولا هو دين الاتكال على القدر
 المجهول للبشر : فقال الأمير مشيراً الى تفسير قول الله تعالى (أولمّا أصابتكم مصيبة قد
 أصبتم مثليها قلتم أنى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم) [٥] . إن صاحب السؤال يعلم وأكثر
 المسلمين لا يعلمون أن هذه الآية خاطب الله تعالى بها أكمل هذه الأمة إيماناً وإسلاماً وهم
 أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ تعجبوا من ظهور المشركين عليهم فى غزوة
 أحد فرد الله عليهم ببيان السبب وهو مخالفتهم أمره صلى الله عليه وسلم للرماة الذين
 يحمون ظهور المقاتلة بآلأ يبرحون أماكنهم سواء كان الغلب للمسلمين أو عليهم، فلما انهزم
 المشركون خالفوا الأمر لمشاركة المقاتلين فى الغنيمة، فكر عليهم المشركون حتى شج رأس

[١] تاريخ الاستاذ الإمام ، ج ٢- ص ٢٦١ ، ٢٦٣

[٢] ، [٣] تاريخ الاستاذ الإمام ، ج ٢- ص ٢٦١ ، ٢٦٣

[٤] سورة آل عمران من الآية ١٧٣-١٧٤

[٥] آل عمران من الآية ١٦٥

النبى صلى الله عليه وسلم إلخ .، " [١] . فالأمير كاستاذه يرى أن عقيدة القضاء والقدر ليست لها علاقة بعقيدة الجبر، "ولو كان في هذه الدعوي ذرة ما من الصحة لما نهض الصحابة أخبر الناس بالاسلام وفتحوا نصف كرة الأرض في خمسين سنة " [٢] .

ثم يختتم الأمير حديثه حول هذه المسألة بقوله : " وحققة الأمر أن كل ما هو وارد في القرآن من آيات القضاء والقدر إنما كان مقصوداً به سبق علم الله بكل ما يقع ولم يكن مقصوداً به نفي الاختيار والترهيد في الكسب " [٣] .

والحق أن الأمير شكيب قد تنبى وفي وقت مبكر إلى الأضرار الاجتماعية و الخلقية التى تصيب المجتمع بالأمراض فتفتك بالأمم و تهدد من كيانها إذا جعلت القدر حجة لكل أحد ، لاسيما عندما ينسحب الاحتجاج بالقدر من موقف الإنسان الفرد إلى موقف الجماعة فتكون المعصية اكبر و البلوى طامة حين تقاد الشعوب إلى ارتاهاات الخلقية المضللة فتصاب بعمى الرؤية للمستقبل وتكون فريسة للأمراض الاجتماعية والانحرافات الخلقية حتى إذا حقت عليها سنة الله فى كونه فلا تجد علة أوحجة تعتذر بها إلا أنه (لاحذر يغنى عن قدر) [٤] .

لذلك كان يحذر من الجمود ويرى أن خطر الجامدين الذين يعتقدون أن الإسلام دين تسليم دون أن يكون هذا التسليم مقرونا بالعمل والسعى والكدح، لا يقل عن خطر الجاحدين الذين يريدون أن يفرنجوا المسلمين ويخرجوهم عن جميع مقوماتهم ومشخصاتهم، يقول شكيب : " فقد أضاع الإسلام، جاحد وجامد " [٥] . فالمسلم الجامد هو الذى طرق لأعداء الإسلام على الإسلام، وأوجد لهم السبيل إلى القالة بحقه، حتى قالوا إنه دين لا يتألف مع الرقى العصرى ، وإنه دين حائل دون المدنية "

" والحققة أن هؤلاء الجامدين هم الذين لا تأتلف عقائدهم مع المدنية، وهم الذين يحاولون دون الرقى العصرى والإسلام براء من جماداتهم هذه " [٦] .

[١] ، [٢] لماذا تأخر المسلمون ، مرجع سابق ص ١٠٩ ، ١١٠

[٣] المرجع السابق ص ١١١

[٤] قضية الخير والشر فى الفكر الإسلامى ، د. محمد السيد الجليند ص ١٣٤

[٥] لماذا تأخر المسلمون ، ص ٨٨

[٦] لماذا تأخر المسلمون ، ص ١١٣

الفصل الثانى

- موقف الأمير من الدروز
- علاقة الدروز بالإسماعيلية الفاطمية
- الجانب الباطنى فى عقيدة الدروز فيما يتعلق بـ :
 - * الألوهية
 - * يوم القيامة و الثواب و العقاب
 - * تأويل آى القرآن الكريم
- الدرزية كمذهب ينتسب للإسلام
 - * موقفهم من أركان الإسلام
 - * موقفهم من رسول الله (صلى الله عليه و سلم)
 - * موقفهم من القرآن الكريم
- حكم علماء الإسلام فى الدروز
- نقد موقف الأمير من الدروز

موقف الأمير شكيب أرسلان من (الدروز)

إن ما كشف حديثاً ونشر عن مذهب (الدروز) خاصة بعد أن كلفت مشيخة العقل سامى مكارم بتأليف (أضواء على مسلك التوحيد) لرد على كتاب عبد الله النجار (مذهب الدروز والتوحيد) وبعد إكتشاف الكثير من مخطوطاتهم وكتبهم المقدسة ولاسيما كتابهم (مصحف المنفرد بذاته) يجعلنا نؤكد أن الإسلام الذى نفهمه من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وإجماع السابقين ولاسيما فى القرون الأولى قبل وجود الحاكم بأمر الله الفاطمى لا يتفق مع الإسلام الذى يعنيه الدروز فى شىء . فهل تغيرت عقيدة الدروز عما كانت عليه عندما كتب الأمير شكيب أرسلان مقالاً [١] يقرر فيه ، أن الدروز فرقة إسلامية جعل عنوانه (ولاتقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً) وفيه يقول : (الدروز فرقة من الفرق الإسلامية ، أصلهم من الشيعة الإسماعيلية الفاطمية و الشيعة الإسماعيلية الفاطمية أصلها من الشيعة السبعية ، القائلين بالأنمة السبعة ، وهؤلاء هم من جملة المسلمين كما لا يخفى .

فإذا قيل أن الدروز هم من الفرق الباطنية التى لا يحكم لها بالإسلام ، فالجواب : إن الدروز يقولون إنهم مسلمون ويقيمون جميع شعائر المسلمين ويتواصلون بموافقة الإسلام والمسلمين فى السراء والضراء ويقولون أن كل من خرج عن ذلك فليس بمسلم . ولهذا أصبح من الصعب على المسلم الذى فهم الإسلام كما فهمه السلف الصالح . والذى سمع حديث (فهل اشققت عن قلبه) أن يخرج الدروز من الإسلام ، وفى الشرع المحمدى قاعدة نحن لنا الظاهر والله يتولى السرائر ، وقد قال الله تعالى " ولاتقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا [٢]" وهؤلاء لا يلحقون السلام فقط ، بل يلحقون السلام ويقولون أنهم مسلمون ويحفظون القرآن ويلتقن ملقنهم الميت : (واذا جاءك منكرو ونكير وسألك مادينك، ومن نبيك ، وماكتابك ، ومن إخوانك وما قبلتك ، فقل لهما : الإسلام دينى ومحمد نبيى ، والقرآن كتابى ، والكعبة قبلتى ، والمسلمون إخوانى) وليس من شعائر الإسلام شىء لا يقيمه أو لا يوجب إقامته الدروز وإذا قيل أنه مع كل هذه المظاهر تحتوى

[١] شكيب أرسلان ، جريدة الشورى ، بتاريخ ١٥ جمادى الثانية سنة ١٣٤٤ هـ

[٢] سورة النساء ، آية ٩٤

عقيدتهم الباطنية التي تعرفها طبقة العقال على ما يصادم أركان عقيدة السنة والجماعة ولايتفق معها في شيء ، فالجواب : لقد وجد في الإسلام أئمة كبار يترضى عنهم عند ذكرهم ، ولهم قباب تزار وتعلق فيها القناديل ، وكانوا يقولون بوحدة الوجود ، فهل وحدة الوجود مما يطابق السنة ؟ كلا ، فهل أخرج هؤلاء الأئمة من الإسلام ؟ كلا .

أما تجسد الآله فليس من عقيدة الدروز كما يتهمهم بعضهم ، والتجسد شيء والترائي شيء آخر ، وأما تأويل آي القرآن الكريم بحسب زعمهم ، فكم من فرقة في الإسلام انفردت بتأويل للآيات الكريمة [١] .

ويستمر الأمير شكيب أرسلان في دفاعه عن إسلام الدروز ، إلا أننا نجد في مقاله هذا ثلاث مسائل ينبغي الوقوف عندها ودراستها :

الأولى : علاقة الدروز بالإسماعيلية الفاطمية ، وكيف تطورت عقيدتهم عن عقيدة الإسماعيلية الشيعية .

الثانية : الجانب الباطني في عقائد الدروز ، وخاصة فيما يتعلق بالألوهية ، والثواب والعقاب ، وتأويل آي القرآن الكريم .

الثالثة : الدرزية كمذهب إسلامي ، وموقفهم من أركان الإسلام الخمسة ، ومن رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن الكريم ، ومدى حرص الدروز اليوم على إظهار شعائر الإسلام والإرتباط بالمسلمين .

علاقة الدروز بالإسماعيلية الفاطمية

الإسماعيلية ، فرقة من فرق الشيعة سميت بهذا الاسم نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق الذي لم تعترف الشيعة الإثناعشرية بإمامته ، بينما وقف الإسماعيليون عند إمامته فسموا لذلك بالسبعية . وإسماعيل هو الإبن الأكبر للإمام جعفر الصادق والذي توفي في حياة والده سنة ١٤٣ هـ وأراد جعفر أن يؤكد وفاة إبنه بأقوال شهود عديدين فكتب محضراً بذلك وأشهد عليه وإلى المدينة [٢] . وقد انقسم أتباعه بعد ذلك إلى ثلاث فرق :

الأولى : قالت بإمامة موسى الكاظم وعرفوا بالإثنى عشرية .

الثانية : قالت أنها منتظرة لإسماعيل لأن إسماعيل لم يموت ولكنه أظهر موته تقية من خلفاء

[١] أحمد الشرباصي ، الأمير شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام ، مرجع سابق ص ٢٠-٢١

[٢] الفصل في الملل والأهواء والنحل ، الشهرستاني ج ٢ ص ٥

بنى العباس .

الثالثة : قالت أن جعفرأ نصب ابنه إسماعيل للإمامة بعده فلما مات إسماعيل فى حياة أبيه علمنا أنه إنما نصب إسماعيل للدلالة على إمامة ابنه محمد بن إسماعيل وهؤلاء يقال لهم المباركية [١] .

وانقسمت المباركية إلى قسمين : قسم وقف عند إمامة محمد المكتوم وقال برجعته وأنه المهدي المنتظر وهؤلاء هم القرامطة ، وقسم قال باستمرار الإمامة فى أئمة مستورن حتى اللحظة التى حكمت فيها الدعوة الإسماعيلية حيث أسس الإمام الشرعى عبد الله المهدي الدولة الفاطمية فى المغرب [٢] .

ومن أشهر دعاة المذهب الإسماعيلي (ميمون القداح) الذى وضع أسس المذهب . ومما يذكر فى هذا المجال أن مؤرخى الإسماعيلية يحلو لهم دائماً أن يحدثوا عن هذه الفترة من تاريخ أئمتهم وهى الفترة التى تعرف عندهم (بدورالستر) - ابتداء من محمد بن إسماعيل وإنهاء بعبد الله ، فكل مؤرخ من مؤرخى الإسماعيلية تناول الحديث عن هذه الفترة بما يبدو له ، بحيث جاء حديثهم مضطرباً أشد الاضطراب مختلفاً أشد الاختلاف فهم مختلفون فى عدد أئمة هذه الفترة ، وهم مختلفون أيضاً فى أسماء هؤلاء الأئمة [٣] .

ويعلق الدكتور محمد أحمد الخطيب على هذا الاضطراب التاريخي عند الإسماعيلية بإعتقاده أن هذا الاضطراب يضاف إلى جملة الشبهات المحيطة فى نسب العبيدين إلى فاطمة الزهراء من ذرية جعفر الصادق ويؤكد ما رواه المقرئى أن عبيد الله الملقب بالمهدي ما هو إلا سعيد بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح الذى إدعى أنه خرج من ستره وأعلن إمامته ودعوته بعد أن كانت فى ستر وخفاء .

وبذلك دخل تاريخ الإسماعيلية فى دور جديد عرف (بدور الظهور) بعدما أعلن عبيد الله قيام الدولة العبيدية سنة ٢٩٧ هـ وقد استطاعت الدولة العبيدية أن تفتح مصر على يد أحد قوادها وهو جوهر الصقلى عام ٣٥٨ هـ فى عهد المعز لدين الله الفاطمى الذى نقل

[١] د. أحمد محمد الخطيب ، الحركات الباطنية فى العالم الإسلامى ، ص ٥٧-٥٨

[٢] عبد الله الأمين ، دراسات فى الفرق والمذاهب (مرجع سابق) ص ٥٩

[٣] د. أحمد محمد الخطيب ، الحركات الباطنية (مرجع سابق) ، ص ٦٤

بعد ذلك عاصمة ملكه من المغرب إلى مصر حيث بنى القاهرة وخلف المعز ولده العزيز بالله ثم تولى الحكم بعد وفاته ولده أبو على المنصور الذى لقب بالحاكم بأمر الله الذى ناصر مذهباً انشق عن الإسماعيلية سنة ٤٠٨ هـ عرف بالدرزية أعلنه دعاة الإسماعيليين الفرس الذين نادوا بالوهمية الحاكم بأمر الله^[١]. وهنا نقف عند شخصية الحاكم بأمر الله الذى هو محور الحديث عن نشأة الدروز وتاريخهم لأن عقيدة طائفة الدروز تقوم على تأليه الحاكم وعبادته .

أسس الحاكم بأمر الله مركزاً لإعداد وتوجيه دعاة الإسماعيلية (أسماء دار الحكمة) ولهذه التسمية مغزى يدل على الاتجاه الفلسفى الذى أريد أن يتخذه هذا المعهد والذى يعتبر محور العقائد الإسماعيلية ، لذلك فقد إستقطب هذا المركز الدعاة الإسماعيليين من كل مكان.^[٢] وقد إحتشد فى دار الحكمة طائفة من دعاة الإسماعيلية الملاحدة فالتقوا حول الحاكم بأمر الله وزينوا له فكرة (ألوهيته) ، مما جعله وراء هذه الدعوة يرعاها و يشجع دعائها^[٣] . ويسوق المؤرخون الذين تناولوا حياة الحاكم بأمر الله الكثير من الأخبار والتصرفات الشاذة والمتناقضة المنسوبة إليه ويؤكد بعضهم أن الحاكم كان يرمى بتصرفاته الشاذة هذه التمهيد لإدعائه الألوهية ولقد أصبحت هذه الأفعال والتناقضات عند الدروز أموراً تدل على ألوهيته لأن لها ظاهراً وباطناً ، والمعروف للإنسان العادى هو الظاهر فقط من تلك الأفعال ، أما باطنها فهو من إختصاص الدروز وحدهم . لقد بدأت الدعوة الجهرية لدعوة الحاكم عام ٤٠٨ هـ على يد ثلاثة من دعاة الإسماعيلية هم : حمزة بن على الزوزنى ومحمد بن إسماعيل الدرزي المعروف بنشتكين والحسن بن حيدرة الفرغانى المعروف بالأخرم أو الأجدع . هذه الإعتقادات ظهرت فى ظل أجواء ومعتقدات العقيدة الإسماعيلية ، وهو ما يؤكد الأمير شكيب أرسلان بقوله ان أصل الدروز من الشيعة الإسماعيلية الفاطمية ، والحق أن نسبة الدروز إلى الإسماعيلية الفاطمية لا تقترب بالدرزية إلى العقيدة الإسلامية بل تباعد بين الإسماعيلية والعقيدة الإسلامية الصحيحة ولقد ذهب بعض الباحثين إلى القول : " إن عقيدة الدروز لم تخرج فى جوهرها عن جوهر المذهب الإسماعيلى الذى لم يكن مكشوفاً

[١] المرجع السابق ص ٦٩-٧٠

[٢] محمد عبد الله عنان ، الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية ص ١٦٤

[٣] الحركات الباطنية ص ٢٠٢

لعامة الناس ، ولعل الحاكم حينما أعلن مذهبه كان يرى أن الوقت قد حان للكشف عن بعض العقائد الباطنة السرية ، على حين خالفه في ذلك معظم الدعاة والسلطات الفاطمية الرسمية [١]. وبناءً على ذلك فإن إعلان الحاكم الربوبية لم يكن خروجاً عن المذهب الإسماعيلي ، وإنما كان مساساً بباطنية المذهب . ويؤيد هذا أن دروز اليوم يعتقدون بوجود إلتقاء بين الإسماعيلية والدروز في العقائد حتى أن الدروز يعتقدون أن الإسماعيليين إخوانهم ، ولكنهم يسمونهم بالتقصير [٢] .

والأمير شكيب أرسلان ينكر على من يقول أن الدروز من الفرق الباطنية التي لا يحكم لها بالإسلام مؤكداً أن الدروز يقولون أنهم مسلمون وقيمون جميع شعائر المسلمين . ومع إقرار الأمير شكيب (الضمني) - كما أفهم - بأن عقيدة الدروز التي تعرفها طبقة العقال تحتوى على ما يصادم أركان عقيدة السنة والجماعة ولا يتفق معها في شئ إلا أنه يرى أن هذه الخلافات لا تخرج الدروز من الإسلام ثم ينفي أن يكون تجسد الإله من عقيدتهم ، وأنهم في تأويلهم لآيات القرآن الكريم لا ينفردون بذلك عن الفرق الإسلامية الأخرى .

وقبل أن ننهي حديثنا عن تطور العقيدة الدرزية عن الإسماعيلية نقدم ملخصاً لأصول العقيدة الدرزية وقواعدها لنستطيع أن نتطرق من خلالها بالتفصيل للجانب الباطني في هذا المذهب . فالدروز يعتقدون بالوهمية الحاكم بأمر الله ، وفي رجعتهم آخر الزمان ، وينكرون الأنبياء والرسل جميعاً ، ولا يأخذون بشيء من أحكام وعبادات الإسلام بل ينكرون أركان الإسلام جميعها ، وقد جعل الدروز بدل أركان الإسلام ، سبعة خصال توحيدية ، وهم يعتقدون بتناسخ الأرواح وإنتقالها إلى الأجساد الإنسانية ، ولهذا فهم لا يعتقدون بالجنة والنار ، والثواب والعقاب ، فالثواب يكون بإنتقال الروح إلى منزلة أرفع حينما تنتقل من جسد إلى جسد ويكون العقاب بتدني منزلتها ، أما القرآن الكريم فإنهم يقولون أنه من صنع سليمان الفارسي ، والذي هو حمزه في عصر الحاكم .

[١] محمد العزاوي ، فرقة النزارية عن الحركات الباطنية ، ص ٢١٢

[٢] عبد الله النجار ، مذهب الدروز والتوحيد ، ص ٣٨

الجانب الباطني في عقائد الدروز

الألوهية

سبق أن ذكرنا أن الدروز يطلقون علي مذهبهم إسم (مذهب التوحيد) ويرون أن مذهبهم التوحيدي هذا قائم علي الإسلام ، غير أنه يفسر آيات التنزيل تفسيراً باطنياً خاصاً ، يخرجهم عن باطن التأويل ، كما يرون أن مذهبهم يخالف أهل التنزيل (ويقصدون بهم المسلمين) في أنه ينظر نظرة خاصة فيما تنطوي عليه الألفاظ من معاني ودلالات روحانية ، ويخالف أهل التأويل (ويسمونهم أهل الباطن) ويقصدون بهذه التسمية الإسماعيلية ، أقرب المذاهب لمذهبهم في تفهم رموزها الخفية [١] .

وفلسفة التوحيد عند الدروز تقوم علي نفي الصفات والأسماء والحالات والجهات والقسم والتشبيه عن الله ، (بمعنى أن الله هو الجمال لا الجميل ، والقدرة لا القدير والحياة لا الحي ، والعلم لا العليم .. الخ فإن الجميل لا يستغني عن الجمال والقادر تلزم له القدرة ، والحي تلزمه الحياة والعالم بالشيء لاغني له عنه ، كأنما هذه جميعاً أمور أو أجزاء منفصلة عنه متبعة له أو كأنها غير ذاته [٢] .

ويرى الدكتور محمد كامل حسين أن ما ذكر عن التوحيد في رسائل الدروز ، وحديثهم عن لاهوتية المعبود ، يتفق تمام الاتفاق مع ما ورد في كتب الدعوة الإسماعيلية عن الله سبحانه وتعالى ففي كتاب ((راحة العقل)) لأحمد حميد الكرمانى ، الذى كان معاصراً لحمزه بن على ، نجد سوراً كاملاً ذا سبعة مشارع عن التوحيد والتقديس ، وحديثه في ذلك كله هو حديث رسائل الدروز فقد جعل الكرمانى المشرع الأول : في بطلان كونه تعالى ليساً والمشرع الثانى في بطلان كونه تعالى أيساً والمشرع الثالث في أنه تعالى لا ينال بصفة من الصفات ، أنه لا يجسم ولا في جسم ، ولا يعقل ذاته عاقل ... ثم ختم المشرع السابع بأن أصدق قول في التوحيد والتسبيح والتمجيد والاثبات ما يكون من قبيل نفي الصفات الموجودة في الموجودات وسلبها عنه تعالى [٣] .

[١] مذهب الدروز والتوحيد ، ص ٨٣

[٢] مذهب الدروز والتوحيد ، ص ٨٣

[٣] طائفة الدروز (محمد كامل حسين ، ص ١٠٤ - ١٠٥) - الحركات الباطنية (ص ٢٢٤)

ثم أن الدروز يأخذون هذه الآراء مجتمعة ويجعلونها في لاهوت معبودهم الحاكم بأمر الله ، فهم يعتقدون أن له حقيقة لاهوتية لاتدرك بالحواس ولا بالأوهام ، ولاتعرف بالرأى ولا بالقياس كما تقول الرسالة ١٣ : ((إن المولى سبحانه ، لأقديم ولا أزل لأن القديم والأزل مخلوقان . هو خالقهما... حقيقة لاهوته لاتدرك بالأوهام والحواس . ولا تعرف بالرأى ولا بالقياس.... ليس له مكان معروف ، فيكون محصوراً فيه ، وتخلو بقية الأماكن منه . ولا يخلو منه مكان فيكون عاجز القدرة . ولا هو بأول ، فيحتاج إلى آخر . ولا بآخر فيكون له أول . ولا بظاهر فيحتاج إلى باطن . ولا بباطن فيكون مستتراً بظاهر)) [١] . والدروز لا يعتقدون أن الله دخل في جسم - تعالى الله عن ذلك - ولكنهم يعتقدون أنه سبحانه اتخذ له حجاباً وصورة ناسوتية ، احتجب بها أمام الناس [٢] . ومعنى هذا كله أن الإمام الفاطمي المعروف (بالحاكم بأمر الله) هو عند الدروز بشر في الأعين المجردة ويعيش بين الناس كما يعيش غيره من البشر وذلك عند الذين لا يعرفون حقيقة ، أما الدروز الذين عرفوا حقيقة فيذهبون إلى أنه الإله المعبود اتخذ لنفسه صورة أنسية سماها الناس (الحاكم بأمر الله) . يقول عبد الله النجار تحت عنوان : (التجلي) ، أما التجلي فيقول المذهب مناقشاً : أنه سبحانه أظهر لنا حجابيه ومقامه رحمةً منه ورأفة (الرسالة ١٣) ((فإن قال قائل كيف يجوز أن نسمع كلام البارئ سبحانه من بشر أو نرى حقيقة في الصور ؟ قلنا : انتم تعتقدون أن الله عز وجل خاطب موسى من شجرة ومن جبل وسميتموه كلم الله ، فإن كانت الشجرة " حجابيه " ، فإن من يعقل ويفهم أحق أن يكون حجاب الله مما لا يعقل ولا يفهم وكيف يجوز للبارئ سبحانه أن " يحتجب " في شجرة يخاطب كلمه منها ، ثم تحرق الشجرة ويتلاشى حجابيه ؟)) [٣] . وهذا الذي يذكره الأستاذ عبد الله النجار منقول عما كتبه حمزة في " الرسالة الموسومة لكشف الحقائق " . ويواصل الأستاذ عبد الله النجار عرضه لرأى المذهب في مسألة التجلي وكيفية إتخاذ المعبود لمقامات ناسوتية فيقول متحدثاً عن الإله - تعالى الله عما يصفون - نقلاً عن الرسالة ٣٦ أنه : (تقرب إلينا بنا . وأنس عقولنا بصورتنا وظهر لنا بجميع أفعالنا . لتقبله إفهامنا . فلا نقول أن هذه الصورة المرئية هي هو ،

[١] مذهب الدروز والتوحيد ، ص ٨٤

[٢] الحركات الباطنية ، ص ٢٢٤

[٣] مذهب الدروز والتوحيد ، ص ٨٧

فنجعله محصوراً محدوداً . بل نقول هو هي ، إستتاراً وتقرباً وتأنيساً ، بغير حد ولا شبه ولا مثل .

أو كما نطق القرآن (الآية ٣٩ من سورة النور) " كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً ، حتي إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده ...) كمثل الناظر في جوهر المرآة فهو يرى نظير صورته بغير لمس ولا إدراك كيفية ولا تحديد ماهية (إن الله لو كان موجوداً علي صورة مخالفة لبريته . وظهر له بمعنى يليق لعظمة أولوهيته لم يشك أحد من البرية ، وارتفع التفاوت والتفاضل ، وسقط الثواب والعقاب) (الرسالة ٦٩) ولذلك : (ظهر في حد الطفولة ثم الكمال ثم اعتل في ظاهر الأمر . لئلا يكون عاجزاً عن ذلك) (عن الإعتلال) . فإن العجز (إرادة العجز والقدرة عليه) من القادر قدرة (الرسالة ٦٧) .

ويسعى الأستاذ عبد الله النجار إلى ربط ماورد في رسائل حمزة بالنظريات الفلسفية ، فينقل عن (الرسالة ٩) القول : (إن الروح لا تدرك إلا بالجسم) ثم يعلق علي ذلك بقوله : فما أقرب هذا القول إلى نظرية (باروخ اسبينوزا) وموداهما أن الوجود يتألف من الطاقة العقلية والطاقة المادية أو المادة والوعي وإمتدادهما بالجسد والروح في الإنسان إنما هو حالة طارئة من حالات الله في الوجود .

ثم يتنقل عن (الرسالة ٦٧) هذا القول في بيان وتبرير إعتقاد الدروز بتجلي المعبود في صورة ناسوتية : (فأى عدل يقتضي أن يكون فوق سبع سموات . علي كرسى . فوق السماء السابعة وقد كلفنا ، مع هذا ، عبادته ومعرفته ؟ . والمرء ليس في وسعه أن يعرف ماخلف الجدار القريب إن لم يكشف عنه . فإن ظهور الله نفس العدل . فلما صح أن ابن آدم أفضل المخلوقات ، وجب أن يختبئ الباري في أشرف المخلوقات) .

وكذلك الرسالة ٧٠ تردد (أن فيثاغورث كان يعتقد أن البارى موجود نور محض . وأنه لايس جسداً ما ، يستتر به لئلا يراه إلا من استأهل ذلك واستحقه وقام في عبادته .. وهكذا يقول أفلاطون معلم أرسطو طاليس ومن اتبعه) .

(إن الباري سبحانه لا تخلو الدار من وجوده طرفة عين ولو خلت الارض منه لزالست الحجة علي الخلق في تلك اللحظة) (الرسالة ٧٥) .

(ظهر بالشكل البشري لأن حكمته قضت بذلك إشفافاً علي جهل العالم المتمسك بالمحسوسات . وإمتحاناً لهم . لتكمل عليهم الحجة) (الرسالة ٤٤) . فظهوره (أنسية لعقولنا . وشفقة منه علينا) (الرسالة ٢٤) . ثم يختم الأستاذ عبد الله النجار ببيان أن هذا

الظهور لم يكن ظهوراً حسيّاً مستشهداً بما جاء في الرسالة ١٩ من أن الحاكم بأمر الله حين كان يركب للخروج في النهار (كان للاثان ظل ، ولا ظل للراكب ... لاهوته المحجوب عنه . وناسوته المظهر لنا) [١] .

سبع مقامات

المقامات، عند الدروز والإسماعيلية ، هي الظهورات أو التجليات وهي في نفس الوقت إمامات . والدروز يعتقدون أن الصورة الناسوتية للآله المعبود ظهرت في الأدوار الماضية ، ويعتقدون أنها سبعة أدوار والآله المعبود أظهر ناسوته في هذه الأدوار عشر مرات أو مقامات فهو في نظرهم واحد لا يتغير في كل دور أو مقام ، وفي رسالة السيرة المستقيمة حديث طويل عن الأدوار التي أظهر فيها المعبود ناسوته لأن المعبود إن لم يظهر ناسوته من حين لآخر لكان الناس يعبدون العدم [٢] . أما المقامات الناسوتية التي يعتقد الدروز أن المعبود ظهر فيها فيرتبونها كما يلي :

١- العلي .

٢- البار .

٣- أبو زكريا : ظهر في وقت السماء الثالثة سنة ٢٢٠ هـ .

٤- عليا : ظهر في وقت السماء الرابعة .

٥- المعلى : ظهر في وقت السماء الخامسة .

٦- القائم : كان طفلاً استودعه مع سر إمامته أبوه المعلى برعاية سعيد المهدي

الملقب (عبيد الله) سنة ٢٨٠ هـ ، وهو مؤسس الدولة الفاطمية . تلاه المنصور

من سنة ٣٣٤ هـ إلى سنة ٣٤١ هـ ثم المعز من سنة ٣٤١ هـ إلى سنة ٣٦٥ هـ .

، وهما مع القائم يعتبرون في المذهب الدرزي ذاتاً واحداً .

٧- العزيز من سنة ٣٦٥ هـ إلى سنة ٣٨٦ هـ . وأخيراً الحاكم (المنصور) وهما

في حساب المذهب واحد كقول الإنجيل : (أنا وألأب واحد) [٣] .

هذا هو الترتيب الذي ذكره عبد الله النجار في كتابه مذهب الدروز والتوحيد ، ونقله

عنه الدكتور محمد أحمد الخطيب في كتابه الحركات الباطنية ، ولكن الدكتور محمد كامل

[١] عبد الله النجار ، مذهب الدروز والتوحيد ، ص ٨٦ - ٨٧

[٢] طائفة الدروز ، ص ١٠٧

[٣] مذهب الدروز والتوحيد ، عبد الله النجار ، ص ٩٥

حسين ينقل عن رسالة السيرة المستقيمة ترتيباً آخراً للإدوار التي أظهر فيها المعبود ناسوته جعل ترتيب ظهور المعبود في صورة القائم قبل ظهوره في صورة أبي زكريا القرمطي . ثم يعلق علي كل ذلك الدكتور محمد كامل حسين بقوله : (وليس لنا أن نناقش هذه العقيدة ، إلا أننا نحب أن نسجل أن ظهور أبي زكريا القرمطي كان أسبق من ظهور القائم بأمر الله ، ثم قولهم أن القائم كان بمصر وبنى بها باباً يسمى الرشيدية - كل ذلك بعيد عن الحقيقة التاريخية ، حقيقة حاول القائم بأمر الله فتح مصر أكثر من مرة ولكنه لم يوفق ، فكيف أقام بها وشيد بها باباً ؟! [١] .

هذه هي عقيدة الدروز في التوحيد كما نقلها الباحثون عن رسائل الدروز من وجهات نظر متعددة ، وبأقلام متعددة وكلها تؤكد إيمان الدروز بالوهمية الحاكم ، ويؤكد ذلك ماكتبه الدكتور مصطفى الشكعة في كتابه إسلام بلا مذاهب وهو الذي عاشر الدروز سنوات ، وعقد صلات طيبة مع زعمائهم وكتابهم ، واطلع علي الكتب المعاصرة بأقلام الاساتذة الدروز أنفسهم ، وقد تعرض في كتابه لما جاء في الكتب الحديثة عن الدروز بأقلامهم ، مثل كتاب (مذهب الدروز والتوحيد) للأستاذ عبد الله النجار - الذي نقلنا عنه وللملاحظات التي أبدت عليه من الدروز أنفسهم ، في كتاب (أضواء علي مسلك التوحيد) الذي قدم له الأستاذ كمال جنبلاط بمقدمة طويلة ثم كانت له توطئة بقلم (بايزيد) وبحث موضوعي للدكتور سامي مكارم يقرر فيه اعتقاد مهم يجب علي الدرزي أن يؤمن به ، وهو أن الناسوت لايفصل عن اللاهوت ، ذلك أن الحجاب هو المحجوب ، والمحجوب هو الحجاب ، فالناسوت في اللاهوت مثل الخط من المعنى ، فيقول : (ويمكننا أن نقول : أن الناسوت من اللاهوت كالخط من المعنى ، وكما أن فكر الإنسان المحدود بالكيفية والإضافة والزمان وماشابه ذلك لايسطيع أن يدرك المعاني مجرده من الخط أو الصورة أو الصوت كذلك لايمكن أن يدرك اللاهوت وجهه من الوجوه وإنما يتجلي الله في الناسوت ، ويكون هذا الناسوت قد تنزه عن كل مالميس هو في حقيقته وشموله فأضحى تشخيصاً للإنسان الكامل ، أي ناسوتاً مجرداً متطهراً مثالياً متزلاً ببجرد الباقي السرمدي فيه عن التوهم . وهذا هو التأنيس بالنسبة للآخرين) [٢] .

[١] طائفة الدروز ، ص ١٠٧

[٢] أضواء علي مسلك التوحيد / سامي مكارم ، ص ١٢٨

" هذه هي نظرتهم للاهوت والناسوت ، تظهر لنا بجلاء أن الدروز يؤمنون بظهور الله في شخص إنسان ، لأن الإنسان في نظرهم هو الأولي بإحتجاب الله في صورته ، بصفته أفضل المخلوقات . وأن ظهور الله - سبحانه وتعالى عما يقولون - بصورة ناسوتية سببه - كما يزعمون - رحمة الله للناس وعدلاً منه لهم في مشاهدتهم إياه ليؤمنوا به وبوجوده" [١] .

" وبما أن الحاكم بأمر الله هي الصورة الناسوتية الأخيرة لله - كما يزعمون - لهذا يعبدونه ويقدمونه ، وينتظرون ظهوره بعد غيبته وهذا المعتقد هو المركز الرئيسي عند الدروز [٢] . وسواء سمي هذا المعتقد تجسد - وهو ما ينفيه الأمير شكيب أرسلان بقوله (وأما تجسد الإله فليس من عقيدتهم كما يتهمهم بعضهم ، والتجسد شيء والسرائي شيء آخر [٣] - أو سمي ترائي أو حلول أو تجلي أو ظهور أو حلول اللاهوت في الناسوت فإن ذلك لن يغير شيئاً في حكم الإسلام ببطلان هذا المعتقد والحكم علي معتقده بالكفر الصريح ، كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : " ولاريب أن هذا القول - الحلول والتجسد - كفر صريح بإتفاق المسلمين ، فقد ثبت في صحيح مسلم ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (اعلموا أن أحداً منكم لن يرى ربه حتى يموت) [٤] فإذا قيل : ظهر في صورة إنسان وتجلي فيه فإن اللفظ يصير مشتركاً بين أن تكون ذاته فيها ، وأن تكون قد صارت بمنزلة المرأة التي يظهر فيها ، وكلاهما باطل ، فإن ذات الله ليست في المخلوقات ولا في نفس ذاته ترى المخلوقات كما يرى المرئي في المرأة) [٥] .

ويؤكد شيخ الإسلام ابن تيمية في موضع آخر إمتناع الإتحاد بين الخالق والمخلوق فيقول : (إن الإتحاد بين الخالق والمخلوق ممتنع ، لأن الخالق والمخلوق إذا إتحدا ، فإما أن يكونا بعد الإتحاد إثنين كما كان قبله ، وهذا تعدد وليس بإتحاد ، وإما أن يكون الخالق قد إستحال وتبدلت حقيقته كسائر ما يتحد مع غيره ، وهذا ممتنع على الله ، إذا الإستحالة تقتضى عدم ما كان موجوداً والله تعالى واجب الوجود بذاته وصفاته الملازمة له والتي هي الكمال ، والتي إذا عدمت كان ذلك نقصاً ينتزه الله تعالى عنه) [٦] .

[١] ، [٢] الحركات الباطنية ، ص ٢٢٨

[٣] من مقال الأمير محل الدراسة

[٤] رواه مسلم في كتاب الفتن ورواه الترمذي في كتاب الفتن

[٥] ابن تيمية : مجموع فتاوى شيخ الإسلام ، مجلد ٢ ، ص ١٧٩ - ١٨٠

[٦] أنور الجندي / المؤامرة على الإسلام ، ص ٥٤ ، عن عقيدة الدروز ص ٢٠١

وينقل الأستاذ أنور الجندى عن أبي حامد الغزالي قوله عن فكرة الإتحاد بين الله والإنسان :
(أن قول القائل : أن العبد صار هو الرب كلام يناقض نفسه ، بل ينبغي أن يتنزه الرب
سبحانه عن أن يجرى اللسان في حقه بأمثال هذه المحاولات . وطريقة البرهنة علي فساد
ذلك عند الغزالي ، هي أن يورد ثلاثة احتمالات لمثل هذا الإتحاد المزعوم :

١- إما أن تظل كل ذات من الذاتين موجودة .

٢- وإما أن تفنى إحداهما وتبقى الأخرى .

٣- وإما أن تفنيا معاً .

في الحالة الأولى : لا يكون هناك إتحاد وفي الثانية : كيف يمكن الزعم بأن هناك إتحاد بين
موجود ومعدوم ؟ وفي الثالثة : لا يكون هناك محل للحديث عن الإتحاد ، بل الأولى أن نتكلم
عن الإنعدام والتناقض واضح في جميع هذه الاحتمالات . والعقل هو الذى يقرر وجود هذا
التناقض ، بعد أن جاء الشرع يبين فساد فكرة الإتحاد عند النصارى [١] .

نستنتج مما تقدم أن فكرة تجسد الإله في صورة إنسانية هو إجتراء علي الله الذى
(ليس كمثله شئ وهو السميع العليم) ، وهي فكرة جاء الإسلام لمحوها من عقول الناس ،
لأنها مستفاه من مذاهب وفلسفات تقوم علي الشرك الوثنية ، لذلك جاءت آيات كثيرة تكشف
كفر اليهود والنصارى لقولهم وإعتقادهم في حلول الله بإنسان . يقول الله تعالى : (وقالت
اليهود عزيز ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ، ذلك قولهم بأفواههم يضاهنون قول
الذين كفروا من قبل ، قاتلهم الله أنى يؤفكون . اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من
دون الله والمسيح ابن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما
يشركون) [٢] .

وإرسال الرسل والأنبياء من قبل الله تعالى ، يدحض كل مزاعم بالحلول والإتحاد ، إذ
بظهوره وحلوله أو إتحاده في الإنسان ، ماكانت هناك حاجة للرسل والأنبياء . كما نستنتج
من ذلك أن فكرة الحلول والإتحاد لايمكن أن تتفق مع التوحيد الذى هو عقيدة المسلم كما
نفهمه من القرآن والسنة ، وكما نفهمه من أول كلمه ينطق بها الإنسان ليكون مسلماً هو
شهادة أن (لا إله إلا الله محمد رسول الله) .

[١] أنور الجندى / المواجهة على الإسلام ، ص ٥٥

[٢] سورة التوبة ، آية ٣٠ ، ٣١

ولو أن هؤلاء الذين يعتقدون بألوهية الحاكم وما زالوا في الضلالات والمثاهات التي وضعها حمزه بن علي ، أصغوا إلى نداء عقولهم ما بقي واحد منهم على هذا الاعتقاد الواهى الذى لا يصدق عقل ، ولا تستسيغه نفس ، ولا يتفق مع الإسم الذى يرضونه لمذهبهم وهو إسم (مذهب التوحيد) ولا نجد مجالاً للإعتراض بأن دروز اليوم ينفون تأليه الحاكم بأمر الله عن معتقدهم بعد ما ذكره الأستاذ عبد الله النجار في كتاب (مذهب الدروز والتوحيد) أثناء حديثه عن الحاكم بأمر الله ، الذى يقول فيه : (وإنى لأذكر عتاب كبير الأشياء الثقات لأنى ذكرت في أحد الكتب المطبوعة أن أم الحاكم كانت صقلية . إذ قال لي أن الحاكم لا أم له ، مردداً ماجاء في الرسالة ٢٦ : (حاشا مولانا جلى ذكره من الأب والإبن والعم والخال . لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) !! [١] .

يوم القيامة والثواب والعقاب

يعتقد الدروز أن الحاكم أظهر لاهوته سنة ٤٠٠ هـ ، وكان يتظاهر أنه من الخلفاء الفاطميين لستر ألوهيته لقلّة المؤمنين به ، وإستمر يظهر لاهوته حيناً ويخفيه حيناً آخرأ إلى أن أخفاه في السنة الثانية عشرة (أي سنة ٤١١ هـ) ولا يظهر لاهوت آخر مرة أخرى إلا يوم الدين . فمتى سيكون هذا اليوم ؟ .

لم يحدد الدروز تاريخ هذا اليوم ، فرسانلهم تقول إن ذلك أمر مجهول ولكن سيكون ذلك في شهر جمادى أو في شهر رجب ، ولهذا اليوم علامات محددة عندهم [٢] .

وقد اختلفت رسائل الدروز في مكان ظهور الحاكم (بناسوته) في هذا اليوم الآخر ، فبعضها وخاصة كتابات حمزة تذهب إلى أن ظهوره سيكون بمصر ، أما رسالة الأسرار ففيها تصريح بأن المعبود سيكون في بلاد الصين يخرج من سد الصين العظيم وحوله شعب يأجوج ومأجوج وهم قوم يؤمنون بمذهب التوحيد [٣] ، ويكونون مليونين ونصف من العساكر مقسمة إلى خمسة أقسام ، كل قسم منها يترأس عليها أحد الحدود فيدخلون مكة المكرمة [٤] .

[١] مذهب الدروز والتوحيد / عبد الله النجار ، ص ١٠٥ - ١٠٦

[٢] طائفة الدروز / محمد كامل حسين ، ص ١٢٤

[٣] طائفة الدروز / ص ١٢٥

[٤] الحركات الباطنية / ص ٢٤٨

ثم يتجلى لهم المعبود في صورة الحاكم بأمر الله من الركن اليماني وفي يده السيف فيقدمه إلى حمزة الذي يهدد بسيف الحاكم مخالف في العقيدة ويعطي الحكم للموحدين [١] . ويعتقد الدروز أن الناس سينقسمون في يوم البعث إلى أربع فرق هم :

- أولاً : الموحدون (وهم عقال الدروز) ، وهم الوزراء والحكام والسلاطين .
- ثانياً : أهل الظاهر ، وهم المسلمون واليهود .
- ثالثاً : أهل الباطن ، وهم النصارى والشبيعة .
- رابعاً : المرتدون ، وهم جهال الدروز [٢] .

ويجعل حمزة لكل طائفة غير أصحابه سيمة في جبينه أو يده ، وعذاباً يتأذى به ، وجزية يؤديها كل عام ، ونحو ذلك من الهوان [٣] (عن مخطوطة في تقسيم جبل لبنان والمؤلف مجهول) .

أما عقيدة الدروز فيما يتعلق بالثواب والعقاب فمرتبطة بإعتقاد آخر يؤمن به الدروز وهو إيمانهم بالتناسخ والتقمص أي بانتقال النفس من جسم بشري إلى جسم بشري آخر ، فالأرواح - كما يزعمون - لاتموت لتبعث ، ولاتنام لتوقظ ، بل أن يوم الحساب - في نظرهم - نهاية مراحل الأرواح وتطويعها في الأجساد ، إذ يبلغ في هذا الوقت (التوحيد) غايته من الانتصار علي العقائد الشركية ، وينتهي الانتقال والمروور في الأقمصة المختلفة [٤] . فالدروز يعتقدون أن المعبود ظهر في صورة ناسوتية حوالي سبعمائة مرة [٥] ، وأن حمزة بن علي (العقل الكلي أو قائم الزمان) قد ظهر بأسماء مختلفة في كل دور من الأدوار التي ظهر فيها إليهم .

ويرى الدكتور محمد كامل حسين أن كتابات الدروز متناقضة في مسألة التناسخ ، فكتابات حمزة بن علي مؤسس المذهب بها تهكم بمن قال بالتناسخ شأنه في ذلك شأن

[١] طائفة الدروز / ص ١٢٥

[٢] دراسات في الفرق والمذاهب / عبد الله الأمين ، ص ١٤٩

[٣] الحركات الباطنية / ص ٢٤٩

[٤] مذهب الدروز والتوحيد / عبد الله النجار ، ص ٨١

[٥] طائفة الدروز / ص ١٠٩

دعاة الفاطميين ، مع اعترافه بظهور المعبود في صور ناسوتية ، وقوله ايضا بانه هو نفسه (أى حمزة بن على) ظهر في صور مختلفة في الادوار المختلفة ، مما يدل على أن مفهوم التناسخ أو الحلول عند الفلاسفة هو غيره عند حمزة . اما في كتابات الدعاة الاخرين الذين جاءوا بعد حمزة ، فمذهب التناسخ واضح اشد الوضوح ، فنجد في رسالة الاسرار ومجالس الرحمة للأولياء الأبرار أن الجسد لا يرجع بعد الموت ولكن النفس تحل في جسد آخر ، فنفس الموحد تنتقل الي موحد والمشارك الي مشترك ، ولا تتغير الأنفس ولكنها تغير قمصانها (أى الجسد) [١] . ولذلك فهم يزعمون أن عددهم لا يزيد ولا ينقص ، لأن التقمص عملية دائمة متواصلة بين أرواحهم . وفي هذا المعنى يقول (بهاء) في أحد رسائله : (أليس قد صح عند كل ذى عقل ومعرفة بالحقيقة والفضل ، أن هذه الاشخاص ، أعنى عالم السواد الأعظم لم يتناقصوا ولم يتزايدوا ، بل هى أشخاص معدودة من أول الادوار الي انقضاء العالم والرجوع الي دار القرار . . . ليس لو زاد العالم في كل ألف سنة شخصا واحدا لضاقت بهم الارض . ثم لو أنه نقص في كل ألف سنة شخص واحد لم يبق منهم أحد ، فصح عند كل ذى عقل راجح أن الأشخاص لم تتناقص ولم تتزايد ، بل تظهر بظهورات مختلفة الصور على مقدار اكتسابها من خير وشر [٢] . ومن هنا كان اعتقاد الدروز الآن بالتناسخ ، فالذى يموت من البشر تنتقل روحه الي جسد يولد جديدا ، ويكون عدد الموتى مساويا لعدد المواليد حتي يظل عدد سكان العالم دون زيادة أو نقصان ! [٣] . وبناء علي اعتقادهم هذا بالتقمص ، فانهم يؤمنون أن العذاب الواقع للإنسان يكون بنقلته من درجة عالية الي درجة دونها من درجات الدين وقلة معيشته وعمى قلبه في دينه ودنياه ، ويستمر تنقله من جسد الي جسد بتناسخ روحه في الأجساد وهو كلما تنتقل روحه من جسد الي جسد نقل منزلته الدينية . أما الثواب عندهم فيكون بنقله بين الأجساد وارتفاعه في العلوم الدينية من درجة إلى درجة إلى أن يبلغ درجة حد " المكاسر " وهو حد من حدود الدين فيزيد في مالها الي أن يبلغ الي ارقى حد من حدود الدين [٤] .

ويحاول الدروز أن يجعلوا من آيات القرآن الكريم التي تدل علي البعث والنشور ، دليلا علي اعتقادهم بالتقمص ، فهذا أحد كتابهم المعاصرين الاستاذ فؤاد الاطرش يأتي بعدة آيات

[١] طائفة الدروز / ص ١٠٩

[٢] رسالة " من دون قائم الزمان والهادي إلى طاعة الرحمن " عن الحركات الباطنية ، ص ٢٤٠

[٣] ، [٤] طائفة الدروز ص ١١٢ ، ١٢٥

القرآن والسنة مما يدل علي أن الروح مشغولة بصاحبها محبوسة له أو عليه .

غير أن الثابت من كتاب الدروز بعد حمزة بن علي ، ومما كتب عنهم من علماء متخصصين اطلعوا علي رسائلهم وكتبهم القديمة والمعاصرة ، يؤكد إيمان الدروز بالتقمص علي النحو الذي بينا . ويؤيد هذا ماكتبه الدكتور سامي مكارم - والذي ينطق باسم مشيخة عقل الدروز - في كتابه (أضواء علي مسلك التوحيد) حيث يقول " إن الذين تقبلوا الدعوة وتعرضوا إلى الحقيقة في الماضي لايزالون يولدون من تقبل الدعوة . كذلك فإن التقمص في معتقد التوحيد ليس تطورا للروح في هذا الدور ، بل هو تطلب الروح في شتى الاحوال ، لكي يتسنى لها أن تختبر هذه الاحوال " [١] .

فمن لم يتقبل نداء الحق ، حسب معتقد التوحيد ، لايمكنه الا أن يحصد نتيجة أعماله في حياته التالية ، وكذلك الحال بالنسبة لمن تقبل هذه النداء وتعرف إلى الحقيقة " [٢] . وفي موضع آخر من كتابه يرد علي الأستاذ النجار الذي كذب في كتابه (مذهب الدروز والتوحيد) ، أن يتذكر انسان ما جرى في حياته السابقة وهو مايعرف عند الدروز (بالنطق) فيقول في معرض رده : " ويمكننا القول أن منطق عملية التقمص لايتعارض مع تذكر الماضي ، خاصة عندما ندرك أن نزعات الفكر اللطيفة ، حسب عقيدة التوحيد ، تتطوى عند الموت ، في أعماق النفس المنتقلة من جسد إلى جسد . وهذه النزعات والافكار اللطيفة ، كبذور إنطلاقة الحياة التالية ، هي التي تحدد وضع التقمص المقبل ، فلا بد لبعض الازهان اذا صادفت بعض الحالات المناسبة ، أن تتذكر الماضي المباشر الذي كانت تعيش فيه " [٣] . كل هذا لايدع مجالاً للشك في اعتقاد الدروز الآن بالتناسخ أو التقمص علي مايشتمل عليه ذلك من مخالفة للدلالة الشرعية الصريحة من القرآن الكريم والسنة .

ومن الآيات القرآنية التي تبطل هذا المعتقد ، قول الله تعالى مخبرا عن حياة البرزخ : " فلولا إذا بلغت الحلقوم ، وأنتم حينئذ تنظرون ، ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون ، فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها أن كنتم صادقين ، فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم ، وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين ، وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم " [٤] .

[١] ، [٢] ، [٣] أضواء علي مسلك التوحيد / سامي مكارم ص ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٧

سورة الواقعة ، آية ٣٨ - الحركات الباطنية ص ٢٤٤

[٤]

يزعم انها تدل علي التناسخ والتقمص ، ومن هذه الآيات قول الله تعالى ، " كلما نضجت جلودهم ، بدلناهم جلودا غيرها " [١] ، " كيف تكفرون بالله ، وكنتم امواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون " [٢] وقوله عز وجل (يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، يحيي الارض بعد موتها وكذلك تخرجون) [٣] . ويزعم الأطرش بعد مجيئه بالآيات بقوله : ان تشبيه النفس بالارض اثبات مادي علي التقمص لايقبل الجدل ، فلنتأمل في ادوار الأرض ومواسمها وموتها ثم حياتها . ويعلق الدكتور محمد أحمد الخطيب علي هذا بان الاستدلال بشيء لايعنى ابدا صحة هذا الاستدلال [٤] . والحقيقة أن مذهب التناسخ كان معروفا في الديانة البوذية والديانة الهندوكية ، كما عرف ايضا أن اليونانيين القدماء تحدث عنهم الفلاسفة وقسموه بين نسخ وفسخ ومسح ورسخ [٥] الا أن هذا المذهب دخل علي الاسلام ، بحكم الاسلام انه عقيدة باطلة تؤدي الي الكفر ، لأن الأخبار اليقينية التي جاءت عن طريق القرآن والرسول صلى الله عليه وسلم بينت بطلان هذا الاعتقاد ، وأن الانسان بعد موته يسأل في القبر . فقد ثبت في السنة سؤال الملكين بعد الموت ، وفي القبر ، وهذا يدل بوضوح علي بطلان ما يتوهم به البعض من أن الروح تظل منتقلة بين الأجسام ، كلما انتسخ وجود واحدة منها في جسدها التي هي فيه وانتقلت منه الي جسد آخر ، وهكذا ذواليك [٦] .

والأمير شكيب أرسلان يحاول أن ينفي عن الدروز اعتقادهم بتناسخ الأرواح في مقاله السابق ذكره فيقول متحدثا عن الدروز انهم يحفظون القرآن الكريم ويلقن ملقنهم الميت ، واذا جاءك منكر ونكير وسألك ، ما دينك ، ومن نبيك ، وما كتابك ، ومن اخوانك ، وما قبيلتك ؟ فقل لهما الاسلام ديني ، ومحمد صلي الله عليه وسلم نبيي ، والقرآن كتابي ، والكعبة قبلتي ، والمسلمون اخوتي .

يروى الأمير هذا ليؤكد إيمان الدروز بسؤال الملكين ، بعد الموت وهو الامر الثابت في

[١] سورة النساء ، آية ٥٦

[٢] سورة البقرة ، آية ٢٨ ، وقد وردت الآية هكذا بالكتاب والمصحح " كيف تكفرون بالله ... "

[٣] سورة الروم ، آية ١٩

[٤] الحركات الباطنية ، ص ٢٤٣

[٥] طائفة الدروز ، ص ١٠٩

[٦] الحركات الباطنية ، ص ٢٤٤

وقال تعالى " واعبد ربك حتى يأتيك اليقين " واليقين ما بعد الموت ، كما قال صلى الله عليه وسلم : " أما عثمان بن مظعون فقد جاءه اليقين من ربه [١] . وقد ثبت فى الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أتى المشركين يوم بدر فى القلب ناداهم : " يا فلان ، هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ، فقد وجدت ما وعدنى ربى حقاً " وهذا دليل على وجودهم وسماعهم ، وأنهم وجدوا ما وعدوه بعد الموت من العذاب [٢] . وقد أخبرنا تعالى بأن هذه الأبدان التى فيها ارواحنا ستشهد علينا يوم القيامة بما عملت ، قال الله تعالى : " ويوم يحشر أعداء الله الى النار فهم يوزعون وحتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ، وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شئ وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون ، وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون " [٣] .

مما تقدم من الأدلة الشرعية من الآيات والأحاديث دليل على بطلان التناسخ . وممن تعرضوا لمسألة التناسخ من علماء السلف ابن حزم الظاهرى رحمه الله ، الذى يقول عن عقيدة التناسخ أنه اعتقاد لا يقوم على برهان حسى أو عقلى ، وقد قامت الأدلة على حدوث العالم ، وما كان حادث فلا بد له من نهاية [٤] . وينقل ابن حزم عن القائلين بالتناسخ قوله : " إلى أن التناسخ هو على سبيل الجزاء ، ذلك أن الله تعالى عدل حكيم رحيم كريم فإذا هو كذلك فمحال أن يعذب من لا ذنب لهم بالجدري والقروح ، فعلمنا أنه تعالى لم يفعل ذلك إلا وقد كانت الأرواح عصاة مستحقة للعذاب بكسب هذه الأجساد لتعذب فيها " [٥] .

ويشابه هذا اعتقاد الدرود أن من ذوى العاهات والمصابين كالأعمى والأعرج والفقر والجاهل ، كان مصابهم هو قصاص من ذنوبهم فى مدة حياتهم السابقة [٦] .

[١] سورة الحجرات آية ٩٩ - الحركات الباطنية ص ٢٤٥

[٢] رواه البخاري ومسلم والنسائي وأحمد (عن الحركات الباطنية ص ٢٤٥)

[٣] سورة فصلت آية ٢٢-٢٩ (عن الحركات الباطنية ص ٢٤٥)

[٤] المرجع السابق ص ٢٤٦

[٥] المرجع السابق ص ٢٤٦

[٦] الدرود والثورة السورية / كريم ثابت ص ٤٨

ويرد ابن حزم هذا الزعم بقوله : "ويكفى بطلان هذا الأصل الفاسد أن يقال له أن الحكيم العدل الرحيم على أصلكم لا يخلق من يعرضه للمعصية حتى يحتاج إلى إفساده بالعذاب بعد إصلاحه ولقد كان قادراً على أن يطهر كل نفس خلقها ولا يعرضها للفتن ويلطف بها لطافاً فيصلحها بها حتى تستحق كلها إحسانه والخلود في النعيم ، وما كان ذلك ينقص شيئاً من ملكه " [١] .

وبناء على هذا فإن اعتقاد التناسخ باطل من الوجهة الشرعية العقلية ، والأصل في الشريعة أن كل قول لم يأت عن نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم فهو كذب وفساد ، ومادام لم يأت عن أحد من الأنبياء عليهم السلام القول بكل هذه المزاعم فقد أصبح قول الدروز فيها باطلاً .

تأويل آى القرآن الكريم

التأويل هو صرف اللفظ عن المعنى الراجح الى المعنى المرجوح لدليل يقتضيه به ، فإذا لم يكن اللفظ محتملاً للمعنى الذى حمل عليه ولم يبين المتأول الدليل الذى حمله على ذلك كان تأويلاً فاسداً بل تلاعباً بالنصوص [٢] .

وقد اتخذ الغلاة فى الإسلام التأويل وسيلة لجعل عقائدهم شرعية وصحيحة ، فكان التأويل أداة لإيهام الناس أن آرائهم متفقة مع نصوص القرآن الكريم . ويجمع أهل السنة على تسمية هؤلاء الغلاة بالباطنية لأنهم جعلوا للقرآن ظاهراً وباطناً ، أما الظاهر فهو دلالات ألفاظه العربية حقيقة أو مجازاً ، وأما الباطن فهو ما وراء هذا الظاهر أو هذه الدلالات .

ومكذا أخذ الغلاة من الباطنية بحرفون اللفظ القرآنى عن معناه الذى سيق له الى معان تتفق مع عقديتهم وتتسجم مع أهوائهم ، حتى صارت تلك الفرق الباطنية ترى فى التحوير للمعنى الظاهرى السبيل الوحيد لتفهم القرآن ، وبذلك أهملوا التفسير الصحيح ، بل صارت احكام القرآن فى رأى أتباع تلك الفرق غير واجبة الإتباع .

[١] الحركات الباطنية ص ٢٤٦

[٢] التفسير والمفسرون / د. الذهبي عن الفرق والمذاهب ص ٤٧

يقول الإمام أبو حامد الغزالي ، في كتابه فضائح الباطنية ، "فإنما لقبوا بها (أي الباطنية) لدعواهم أن لظواهر القرآن والأخبار بواطن ، تجرى في الظواهر مجرى اللب من القشور ، وأنها (أي الظواهر) بصورها ، توهم عند الجهال الأغبياء صورا" جليلة ، وهي عند الأذكياء العقلاء رموز وإشارات الى حقائق معينة ، وإن من تقاعد عقله عن الغوص على الخفايا والأسرار ، والبواطن والأغوار ، وقنع بظواهرها ، مسارعا الى الإغترار كان تحت الأواصر والأغلال ، معني (أي متقلاً) بالأوزار والأثقال وأرادوا بالأغلال : التكاليف الشرعية ، فإن من ارتقى الى علم الباطن انحط عنه التكليف ، واستراح من أعبائه ، وهم المرادون بقول الله تعالى : ((ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم)) أي يضع الله التكليف عن الذين علموا الباطن" [١] . والباطنيون بتأويلهم أي القرآن الكريم تأويلاً باطنياً ينجون نهج اليهود الذين وضعوا كتاباً للتأويل الخفي للتوراة وأهم مسأله رية التعاليم وإمكان فك رموز التوراة ، وكذلك رمزية الأعداد والحروف ، وسموا كتابهم هذا (القبالة) وإليه تنسب طائفة (القبالية) عند اليهود [٢] . "وكان تأويل ابن سبأ لقوله تعالى ((ان الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد)) وقوله : إني لأعجب ممن يقول برجعة عيسى ولا يقول برجعة محمد (ص) ، أول تأويل لمعاني القرآن الكريم ، فوضع بذلك هذا المذهب الباطني بما فيه من قول بالرجعة ، والذي نشأ عليه مذهب التتاسخ وقالت به حركات الغلو الأخرى" [٣] .

وطائفة الدروز كغيرها من الفرق الباطنية تؤول أي القرآن الكريم تأويلاً يتفق مع عقائدهم وإن خالف تأويلهم ظاهر النص وإجماع المفسرين . وقد مر بنا كيف أتى أحد كتابهم المعاصرين وهو الأستاذ فؤاد الأطرش بعدة آيات وزعم انها تدل على التتاسخ والتقمص لا على البعث والنشور كما أجمع المفسرون ومنها قول الله تعالى ((كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها)) [٤] ، وقوله عز وجل ((يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون)) [٥] .

[١] عن الشيعة - المهدي الدروزي / د. عبد المنعم النمر ، ص ٢١ .

[٢] دراسات في الفرق والمذاهب ص ٤٨ عن المعجم الفلسفي / د. جميل صليبا ج ٢

[٣] الحركات الباطنية ص ٣٢

[٤] سورة النساء آية ٥٦

[٥] سورة الروم آية ١٩

ويزعم الأطرش بعد مجيئه بالآيات بقوله: ان تشبيه النفس بالأرض اثبات مادي على النقص لا يقبل الجدل ، فلنتأمل في أدوار الأرض ومواسمها وموتها وحياتها [١] .

ومن النماذج البارزة لتأويل الدروز لآيات القرآن الكريم اثباتا لمعتقداتهم ما ذكره حمزة في رسالته (الموسومة بكشف الحقائق) ، وفيها يفسر آيات من سورة الحاقة لإثبات صحة ما ذهب اليه في حدود الدين فيقول : "فهؤلاء الحدود السبعون الذين ذكرناهم ، هم أذرع السلسلة الذي قال في القرآن [٢] : "خذوه فغلوه" ، أى ضد الإمام إذا بلغ غايته وتمت نظريته ، خذوه بالحجج العقلية وغلوه بالعهد وهو الذبح الذي قالوا بأن القائم يذبح إبليس الأبالسة ، "ثم الجحيم صلوه" ، أى غوامض علوم قائم الزمان الذى يتحتم العلماء والفهماء عند علمه ، أى يصمتوا ويتخيروا ، "ثم فى سلسلة ذرعا سبعون ذراعا فاسلكوه" أى ميثاق قائم الزمان الذى هو سلسلة بعضها فى بعض ، وهم سبعون رجلا فى دعوة التوحيد .

"وبعد هذا التفسير العجيب الغريب لآيات الله نجد حمزة فى هذه الرسالة يعيب على المسلمين الذين يفسرون هذه الآيات بأنها تهديد لأهل النار ويقول: "فهذه السلسلة الحقيقية ومعانيها ، لا كما ذكره الجاهل الحشوية ، فان قالوا : بان الله أراد بالسلسلة تهديد أهل النار والتعظيم عليهم فقد بطلت حججهم هاهنا لأنه قال سبعون ذراعا ، ولو كان بسبب التعظيم لكان يجب ان يكون ألف ذراع ، فلما لم يذكر غير سبعين ذراعا ، أعلمنا انه اراد بذلك اشخاصا معروفة دينية توحيدية لايجوز لأحد أن يتجاوز حدهم ولايزيد ولا ينقص" [٣] .

وتأويل حمزة هذا لآيات سورة الحاقة يحاول به اثبات مبدأ اساسى فى العقيدة الدرزية ، وهو أن معبودهم اظهر من نوره حدودا خمسة ، ظهوروا مع هذا المعبود فى جميع ظهوراته ، ورد ترتيبهم فى رسالة معرفة الإمام إلى :

أولاً : العقل الكلى وهو الحد الأول الذى أبدعه المعبود من نوره ، ويطلقون عليه أيضا ذومعه ، وعلة العلل والأمر قائم الزمان ، والإرادة ، والإمام الأعظم ، وهادى المستجيبين وهو حمزة بن على بن احمد .

[١] الحركات الباطنية ص ٢٤٣

[٢] يقول الدكتور محمد احمد الخطيب : "هذه عادة حمزة ودعااته حينما يستشهدون بالقرآن ، لا يذكرون من القائل لأنهم لا يعترفون بأنه عند الله سبحانه"

[٣] الحركات الباطنية ص ٢٥٨

ثانياً : النفس وهو الحد الثاني الذى أوجده العقل الكلى ويطلقون عليه أيضاً ذو مصة ، والمشيئة ، وإدريس زمانه ، وأخنوخ أوانه ، وهرمس الهرامسة ، والحجة الصفية الرضية ، والشيخ المجتبى ، وهو أبو إبراهيم اسماعيل بن محمد بن حامد التميمي ، ضهر حمزة بن على .

ثالثاً : الكلمة وهو الحد الثالث ويطلقون عليه أيضاً سفير القدرة ، وفخر الموحدين ، وبشير المؤمنين ، وعماد المستجيبين ، والشيخ الرضى ، وهو أبو عبد الله محمد بن وهب القرشى .

رابعاً : السابق وهو الحد الرابع ويطلقون عليه الجناح الأيمن ، ونظام المستجيبين ، وعز الموحدين وهو أبو الخير سلامة بن عبد الوهاب السمرى .

خامساً : التالى وهو الحد الخامس والأخير ويطلقون عليه أيضاً : الجناح الأيسر ، ولسان المؤمنين ، وسند الموحدين ، ومعدن العلوم ، والذى يقول بالأفعال الصحيحة المعلومة ، والناصح لكافة الخلق أجمعين ، وهو الشيخ المقتنى بهاء الدين أبو الحسن على بن أحمد السموقى المعروف (بالضيف) [١] .

وقد جعل حمزة لمرتبة العقل سبعين حجة (أو درجة) هم حدود الإمامة والتوحيد ، وهم سبعون درجة موزعين ومنظمين حسب الشكل التالى :

- ١- النفس الكلية وله اثنا عشر حجة فى الجزائر ، وسبعة دعاة للأقاليم .
 - ٢- الكلمة وله اثنا عشر حجة وسبعة دعاة .
 - ٣- السابق وله اثنا عشر حجة فقط .
 - ٤- التالى وله اثنا عشر حجة فقط .
 - ٥- الداعى المطلق وله مأذون واحد ومكالبان (أو مكاسران) .
- وعن هؤلاء الحدود السبعين تفرعت الحدود جميعاً بين دعاة ومأذنين ومكاسرين .
وجميع الحدود الحرم منهم (الحرم هم الأربعة الذين يتلون العقل الكلى) وغير الحرم كلهم من قبل العقل الكلى يسقط منهم من يريد ويرفع درجة من يشاء .

والحدود السبعون هم الذين ذكروا فى القرآن الكريم على ما أوله حمزة بن على بالآية الكريمة السابق ذكرها من سورة الحاقة ((ثم فى سلسلة ذرعا سبعون ذراعا فاسلكوه)) أى ان ميثاق قائم الزمان حمزة بن على الذى هو سلسلة بعضها فى بعض وهم سبعون رجلا فى دعوة التوحيد فمثل حمزة حدوده بالسلسلة لأن دعوتهم منتظمة بعضها ببعض [١] .

كما تأول الدروز ((بسم الله الرحمن الرحيم)) تأويلاً هو نفس تأويل الفاطميين تقريباً ، فقالوا إن ((بسم الله)) سبعة أحرف دليل على سبعة دعاة أصحاب الأقاليم السبعة ، و ((الرحمن الرحيم)) اثنا عشر حرفاً دليل على اثنى عشر دعاة الجزائر [٢] .

وهذا التأويل مرتبط بتقسيم الإسماعيلية الأرض إلى عدة جزر ، وكل جزيرة تحتوى عدة أقاليم ، فالحجة مبسّول عن الجزيرة ، والداعية عن الإقليم ، وقد أخذ حمزة ذلك عن الإسماعيليين .

ويعتقد الدروز أن حمزة ظهر فى الأدوار الكبرى والأدوار الصغرى بأسماء مختلفة فهو شطنيل فى دور آدم ، وفيثاغورث فى دور نوح ، واليعازر فى دور عيسى ، وأنه أى حمزة هو المسيح الحقيقى الحى الأبدى . والنظرية "التوحيدية" المتعلقة بدور عيسى تقول إن "الممد" لعيسى هو يسوع ، إذ أن لكل ناطق ممداً .

"يسوع هو السيد الإمام العظيم ، صاحب البرهان والمعاجز الذى اشارت اليه الرسل . وهو الذى تبعه الحواريون إخوته الأكرمون ، صلى الله عليه وسلم ، فلما صلب عيسى ودفن اجتمع يسوع بتلاميذه ... ((وما قتلوه وما صلبوه . ولكن شبه لهم)) وهذا ترديد للآية ١٥٧ من سورة النساء وتمامها ((وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ، ما لهم به من علم إلا اتباع الظن ، وما قتلوه يقينا . بل رفعه الله إليه))" [٣] . وهكذا يتأول الدروز ما ورد فى القرآن الكريم عن الأنبياء بتأويلات خاصة لإثبات عقائدهم .

وإذا تتبعنا تأويلات الدروز لآيات القرآن الكريم لصعب علينا حصرها لكثرتها وغرابتها ، وقد مر بنا تأويلهم لقول الله تعالى ((فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب)) [٤] .

[١] محمد كامل حسين ، طائفة الدروز ، ص ١١٤

[٢] محمد كامل حسين ، طائفة الدروز ، ص ١١٥

[٣] عبد الله النجار ، مذهب الدروز والتوحيد ، ص ١٢٩

[٤] سورة الحديد ، جزء من الآية ١٣

تقول الرسالة ٣٦ إن الدين "الظاهر من قبله العذاب" والباطن (أى التأويل) فيه الرحمة (أى فيه مذهب التوحيد) ولم يقل هو الرحمة . وفى الشيء ما أودع فيه ، وليس هو الشيء بعينه . قدل بأن الباطل (أى للتأويل) يدل على الرحمة (أى التوحيد) " [١] . وفسرت الرسالة ٣٨ هذه الآية بقولها : ((السور الشريعة والباب الأساس كما قال الناطق : أنا مدينة العلم وعلى بابها . الباطن (أى التأويل وهو باطن التنزيل) فيه الرحمة (أى "حكمة" التوحيد) دليل على أن الرحمة غير الباطن (أى أن "الحكمة" غير التأويل) ... والقائم (أى العقل) صاحب الرحمة" [٢] .

وبهذا يتحول كتاب الله الى رموز وألغاز لا يمكن ان يفهمها أو يفسرها أحد المؤمنين إلا من خلال تأويلات حمزة بن على ، فهل يمكن لمثل هذه التأويلات أن تمت إلى الإسلام بصلة ، يقول الله تعالى: ((هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب ، ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب)) [٣] .

فأهل الضلال هم الذين يأخذون من كتاب الله بالمتشابه الذى يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم وينزلوه عليها ابتغاء الفتنة لإضلال أتباعهم إيهاما لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن .

ولقد فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين عنتهم الآية الكريمة : ((فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه)) - يعنى آيات القرآن الكريم - ((ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله)) ... إلخ ، فيما رواه الإمام أحمد عن عائشة رضى الله عنها أنه قال: "فإذا رأيتم الذين يجادلون فيه ، فهم الذين عنى الله فاحذروهم" وهى رواية البخارى [٤] ، فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم [٥] .

[١] عبد الله النجار ، مذهب الدروز والتوحيد ، ص ٤٠ .

[٢] المرجع السابق

[٣] سورة آل عمران آية ٧ ، ٨ .

[٤] صحيح البخارى ج ٨ ص ٣٤٣ كتاب التفسير

[٥] تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٤-٦

فالإسلام دين سهل واضح لاغموض فيه ولاتعقيد ولارموز ، وقد احتج الله تعالى على العرب ، بأن القرآن عربى ، ومفهوم لهم ((إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون)) . فى أول سورة يوسف و ((إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون)) . فى أول الزخرف كما أفاد ذلك فى عدة مواضع ، واحتج على العرب بأنه عربى مفهوم للجميع ، وليس بأعجمى .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم قد ترك المسلمين على المحجة الواضحة ، ليُنْها كنهارها ، فكل من حاد عن هذه السبيل ، فإنما أعرض عن الصراط المستقيم ، وتفرقت به السبل ، حتى خرج بعضهم عن طريق الإسلام .

ونصوص القرآن الكريم تفهم طبقا لقواعد اللغة العربية من غير تعسف ولا تكلف ووفق ما فهمها صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن قال هؤلاء أو غيرهم : إن هذه المعاني الظاهرة إنما هي للعوام الجهلة من أهل السنة ، فهم لا يقصدون إلا التهرب من الاحتكام للقرآن .

وقد رد بعض المؤرخين فكرة التأويل الباطنى للقرآن الذى لا يعلم تأويله إلا الإمام ، إلى أصلها المجوسى الفارسى لأن الفرس اعتقدوا أن ملوكهم منحدرين من أصلاب الآلهة وأن الشاهنشاه إنما هو تجسيد الإله ، فابتدع الغلاة فكرة التأويل وجعلوها خاصة بالإمام الذى تجب طاعته وبالوحي من بعده ولو كان فارسيا بهدف تقريب الإسلام من المجوسية [١] .

الدرزية كمذهب ينتسب إلى الإسلام

الأمير شكيب أرسلان يثبت أن فرقة الدروز فرقة إسلامية - كما مر بنا - في كل شيء وهي أشبه بالفرق الصوفية التي لها تعاليمها الخاصة ولها تأويلاتها الخاصة .

والدروز يعتقدون انهم في طليعة المسلمين الأولين ، يقول عبد الله النجار : " ان هذا المذهب متفرع من الإسلام ، والإسلام من حيث انحصاره في القرآن ، وعدم خروجه عنه ، هو مدار المذهب الذي يفسر آياته على طريقتة الخاصة . فهو ليس ديانة ، وكتبه تسمى الحكمة ، مما يدل على مصدرها الفلسفي . الحافل بالنقد والتفسير والتحليل والدحض والإثبات والتأويل" [١] . ويؤكد الأستاذ عبد الله النجار أن الدروز مسلمون لأنهم يتمسكون (بالتوحيد) الذي هو صلب الإسلام ، وهو أيضا صلب جميع فرقته ، أما الاختلافات في أشكال العبادة ، وفي فهمها وتفسيرها ، وألوان ممارستها فهذا لا يخرج الفرقة من الدين ، لأن الانتقال من دين إلى آخر لا يكون الا بالانتقال من اعتقاد الى اعتقاد آخر في جوهر المعبود كالانتقال عن عبادة الأصنام ، الى عبادة آلهة عديدة الى إله مركب ، الى إله واحد ، وهو التوحيد [٢] . والباحث المدقق يظهر له بجلاء أن الدروز وإن قالوا أن عقيدتهم تقوم على التوحيد ، فإنما يعتنون توحيداً خاصاً بمذهبهم ، وإن قالوا أنهم يتجهون الى إله واحد فإنهم يعنون رباً آخرأ غير رب العالمين الذي يتجه نحوه المسلمون بالتوحيد . أما قولهم أن مذهبهم منحصر في القرآن ، وعدم الخروج عليه والمذهب يفسر آيات القرآن تفسيراً باطنياً خاصاً ، فقد رأينا كيف يذهب هذا التفسير الباطني بالمعنى بعيداً عما يؤمن به غالبية المسلمين . ولكن مادام الدروز حريصين على الإنتساب الى الإسلام فقد يكون مطلوب منهم ان يوضحوا موقفهم من شريعة الإسلام وأركانها ، ولما كان القرآن - الذي يعتبرونه مدار مذهبهم - قد أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو رسول الله ، فقد يكون مطلوب منهم أيضا أن يوضحوا صلة مذهبهم بالرسول الكريم .

وعلى الصفحات التالية نتعرض للبحث عن موقف الدروز من أركان الإسلام وكتبهم المقدسة ، وموقفهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من خلال ما كتبه الدروز وما كتب عنهم قديما وحديثا ، وذلك لبيان مقدار ارتباط المذهب بالإسلام .

موقف الدروز من أركان الإسلام

لقد فرض حمزة على أتباعه سبع فرائض توحيدية ، تُغنى عن الصلاة والصوم والزكاة والحج والجهاد . يقول حمزة في أحد رسائله : "... إن مولانا جل ذكره قد أسقط عنهن السبع دعائم التكليفية الناموسية ، وفرض عليهم سبع خصال توحيدية دينية [١] أولها : وأعظمها صدق [٢] اللسان .
وثانيها : حفظ الإخوان .
وثالثها : ترك عبادة العدم والبهتان .
ورابعها : البراءة من الأبالسة والطغيان .
 وخامسها : توحيد المولى جل ذكره في كل عصر وزمان .
وسادسها : الرضى بفعله كيفما كان .
وسابعها : التسليم لأمره في السر والحدثان " [٣] .

وهذه الفرائض السبع التى فرضها حمزة هى عوض عن أركان الإسلام الخمسة بالإضافة الى الى الجهاد والولاية [٤] .

وفى رسالة لحمزة بعنوان (الكتاب المعروف بالنقد الخفى) يحاول فيها حمزة أن أعمال الحاكم قد بينت وأظهرت نسخ الشريعة وأركان الإسلام ، وفيها يحاول أن يهدم الشهادتين وهما أول أركان الإسلام (لا إله إلا الله محمد رسول الله) حيث يبين أن الجملتين دليل على السابق والتالى ، ثم يزعم أن هذا الركن ليس كما يفهمه المسلمون ويؤمنون به [٥] .

ويلخص الدكتور محمد أحمد الخطيب ما ورد فى رسالة حمزة بما يلى :

١- الشهادتان بدلان على عبادة الحاكم ، وعلى حدود الدروز ولاتدلان على ما يقصده

أهل السنة ، ولا الإسماعيلية .

٢- وأن الصلاة هى ضلة القلوب بعبادة الحاكم .

[١] الحركات الباطنية ص ٢٧٦

[٢] الدروز لا ينطقون كلمة الصدق بالصاد لحساب الجمل ...

[٣] مذهب الدروز والتوحيد ص ١٤٨

[٤] هي من فرائض الشيعة ويقصدون بها ولاية الإمام

[٥] الحركات الباطنية ص ٢٧٨

٣- وأما الزكاه فهي عبادة الحاكم ، وتركية النفس .

٤- والصوم صيانة قلوبهم بتوحيد مولا هم .

٥- والحج هو توحيد الحاكم .

٦- والجهاد هو السعى فى توحيد الحاكم ومعرفته [١] .

ويؤكد الأستاذ عبد الله النجار (إن مذهب التوحيد يوصى بممارسة الفرائض القرآنية) .
 وإثباتاً لقوله يقطف من الرسالة ١٥ مايلى : "ليس كل من عرف باطن شئ وجب عليه ترك
 ظاهره وفي الأشياء ما لا يجب ترك ظاهره . ولو علم تأويله على سبعين وجهاً . منها
 الطهارة وباطنها البراءة من الأبالة ، وطهارة القلوب من محبتهم . فلا يجوز لأحد ،
 ولا يستحسن العقل إذا عرف باطن الطهارة ، أن يدخل الخلاء ويخرج ولا يغسل ، ويقول أنه
 قد عرف . فإذا ترك ظاهرها يتوسخ ، ويقع عليه اسم النجاسة ، بل يجب على من عرف
 الباطن أن يزيد فى طهره ونظافته بدنه [٢] . كما يؤكد الأستاذ عبد الله النجار أن حمزة
 كان يوصى اتباعه بالتجاوب مع اهل السنة فى اقامة الفرائض الدينية فينقل عن الرسالة ٣١
 قول حمزة : "... واجمع شمل الموحدين ، وكن لهم فى نفاسهم ، وأعراسهم ، وحنائهم ،
 على السنة " . كما ينقل عنه قوله فى الرسالة ٣٣ ((صونوا الحكمة عن غير أهلها ...
 واستتروا بالمألوف عند أهل .. فانتم ترونهم من حيث لا يرونكم ... إلخ " . كل هذه الشواهد
 يسوقها الأستاذ النجار ليرد بها على مكفرى المذهب ، وفى معرض دفاعه عن تأويلات
 الدروز للقرآن الكريم يستشهد بكلام الإمام الشيخ محمد عبده : " إذا تعارض العقل والنقل ،
 أخذ بما دل عليه العقل ، وبقي فى النقل طريقان : طريق التسليم بصحة المنقول مع
 الإعتراف بالعجز عن فهمه ، وتفويض الأمر الى الله فى علمه . والطريق الثانية تأويل
 النقل ، مع المحافظة على قوانين اللغة ، حتى يتفق معناه مع ما أثبتته العقل ... وإذا صدر
 قول يحتمل الكفر من مائة وجه ، ويحتمل الإيمان من وجه واحد حمل على الإيمان ،
 ولا يجوز حمله على الكفر " . ثم يعلق على هذا النص بقوله ان فى هذا القول المبين ايماء الى
 رحابة الإسلام وتسامحه ، الذين انطلقت منهما التأويلات الباطنية ، ونظريات غلاة الصوفية
 وتعددت المذاهب الإسلامية ، ومنها مذهب الموحدين [٣] .

[١] الحركات الباطنية ص ٢٨٠

[٢] ، [٣] مذهب الدروز والتوحيد ص ١٤٨ ، ١٥٠

وعلى الرغم مما ذكره الأستاذ النجار من وصايا حمزة لأتباعه بأقامة الشريعة مع أهلها ، (واللطف بهم) ، على سبيل التقية ، إلا أن الدكتور مصطفى الشكعة يذكر في كتابه إسلام بلا مذاهب أنه لما قامت الفتنة الكبرى في لبنان بين الدرزي والموارنة سنة ١٨٦٠م ، بدأت آخر دلالة شعائرية بالإنقراض ، ونعني بها شعائر الصلاة في المساجد الكثيرة التي كانت منتشرة في القرى الدرزية ، ولجأ الدرزي ، بعد ذلك الى الخلوات يقرأون بها رسائلهم وتركوا المساجد نهائياً" [١] . وقد اعترف شيخ عقل الدرزي الشيخ محمد أبو شقرا أخيراً في حديث شخصي للدكتور مصطفى الشكعة بأن صلاة الدرزي تختلف عن صلاة جمهور المسلمين ، فالفروض وإن كانت خمسة ، إلا أن عدد الركعات في كل صلاة يختلف عن عدد الركعات المعروفة ، وربما طريقة الصلاة نفسها. هذا والوضوء ليس ضروريا مادام المصلي نظيفاً...

ويستمر الشيخ في حديثه للدكتور مصطفى فيقرر: "الصوم معناه الإمتناع عن الرفث . ويجوز فيه الأكل والشرب ، وهو عشرة أيام من ذي الحجة ، تنتهي بالعيد. !! ، والزكاة معطلة ولاحدود لها. وهي ليست فريضة والحج لايعتبر فرضاً ، ولا يؤمنون بمناسك الحج بل ويسفهنها ، ويرون فيها مظاهر وثنية . مصدر التشريع عندهم القرآن وحده ليس غير !! وأحياناً بعض الإجهادات . أما الحديث فمعطل ولا يؤمنون بمناسك ولا يؤخذ به !! ولا يجوز زواج الدرزية من غير الدرزي ، ولا زواج الدرزي من غير الدرزية ، وإلا كان باطلاً ، ولايجوز تعدد الزوجات" [٢] .

وهكذا فإن شريعة الدرزي قديماً وحديثاً تتلخص في إسقاط الفرائض الدينية التكليفية وعدم إقامة الفرائض الإسلامية ، والإعتراف بالخصال التوحيدية فمن إعترف بها فهو من "الموحدين".

موقف الدرزي من رسول الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم

يقول الأمير شبيب أن الدرزي يلتقون موتاهم أن نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم ، فما مكانة محمد صلى الله عليه وسلم في العقيدة الدرزية ؟ ، وهل هي نفس المكانة التي يرفعه إليها سائر المسلمين ؟ .

[١] مصطفى الشكعة ، إسلام بلا مذاهب ، ص ٢٠٨

[٢] الشريعة - المهدي الدرزي / د. عبد المنعم النمر ص ٢٥٦

فى كتاب (إسلام بلا مذاهب) ومن خلال حوار مع الزعيم السياسى الدرزى كمال جنبلاط ، ذكر الدكتور مصطفى الشكعة على لسان الزعيم الدرزى قوله: "ومحمد له مكانة محدودة" وهوليس إلا واسطة الرسالة [١] . وكلام جنبلاط عن "محمد" صلى الله عليه وسلم ومكانته المحدودة فى شريعتهم ، يعنى تأثره بما جاء فى احدى رسائل حمزة التى ينتقص فيها من رسالة "محمد" ، ويثبت لنفسه رسالة تفوقها فيقول: "وانتم تعلمون أن لمحمد صلى الله عليه وسلم أربعمئة سنة وعشر سنين (لما كان حمزة موجوداً) ، لم يظهر دينه على الأديان كلها ، واليهود والنصارى أكثر من المسلمين ، والهند والسند والزنج أكثر منهم. فلو كان الرسول محمد له أديان هؤلاء (النطقاء) لكان يجب ان يكون المسلمين أكثر العالمين وأغلبهم فى الأولين والآخرين ، فلمالم يصح للمسلمين ذلك علمنا بأن الرسول الحقيقى ، هو عبد مولانا جل ذكره ، وهاديا إليه ، وإماما على أمره لعبيده" [٢] .

والملاحظ أن حمزة يشير الى الأنبياء بكلمة (النطقاء) وهو مصطلح شيعى ، فالناطق يقصدون به كل نبي والأساس الوصى . أما عند الدروز فالناطق والأساس هما إبليس والشيطان ، "قالأول - أى إبليس - ظهر فى جسم آدم ثم انتقل الى نوح ، ثم الى إبراهيم ، ثم الى موسى ، ثم الى عيسى ، ثم الى محمد ، ثم الى سعيد ! وأما الثانى - الشيطان - فظهر أولاً فى جسم شيت بن آدم ثم فى سام ، ثم فى اسماعيل ، ثم فى يشوع بن نون بعدها هارون ، ثم شمعون الصفا ، ثم فى على بن أبى طالب ، ثم فى قداح" [٣] .

ويعتقد الدروز أيضاً ، أن القرآن قد أوحى حقيقة الى سلمان الفارسى - أى حمزة بن علي ، لأنهم يعتقدون أن حمزة ظهر بالتناسخ بعدة ظهورات منها بصورة سلمان الفارسى - وأنه كلامه ، وأن محمداً أخذه وتلقاه عنه ، ثم هم يزعمون أن الرسول صلى الله عليه وسلم طمس الرسالة ولم يبلغها ، حتى زعموا أن خطاب لقمان الذى خاطب به ولده : "يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر" [٤] هو خطاب سلمان لمحمد صلى الله عليه وسلم [٥] .

[١] إسلام بلا مذاهب ص ٢٨٨

[٢] الشيعة - المهدي الدروز / د. عبد المنعم النمر ص ٢٥٩

[٣] الحركات الباطنية ص ٣٠٢

[٤] سورة لقمان آية ١٧

[٥] الحركات الباطنية ص ٣٠٣

وبعد هذا التصوير الذى لا يرضاه أى مسلم ، مهما كان انتماءه المذهبى للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، نجد الدروز يتجاوزون ذلك إلى صحابة الرسول أيضا فيطلقون عليهم أشنع الأوصاف القبيحة والشائم ، فيصفون أبا بكر وعمر بأنهما الفحشاء والمنكر ويؤولون الآية الكريمة " إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان " بأن المراد بها الخلفاء الراشدين الأربعة ، لأنهم من عمل محمد بن عبد الله [١] .

موقف الدروز من القرآن الكريم

على الرغم من تأكيدات شيوخ وعلماء الدروز أن القرآن وحده هو مصدر التشريع عندهم (حسب تأويلهم) إلا أن للدروز كتباً أخرى سرية تعد هى المصدر الرئيسى لمذهب الدروز. وقد ظهر حديثاً أن للدروز مصحفاً يشموناه: (مصحف المنفرد بذاته). يقول الدكتور محمد أحمد الخطيب عنه : [٢] " يعتقد أن كاتبه هو الأستاذ كمال جنبلاط الزعيم اللبنانى المعروف والذى أغتيل قبل عدة سنوات ، ويقال أنه تعاون فى وضعه ووضع رسائل أخرى ، مع عاطف العجمى ، وبخط الشيخ عبد الخالق أبى صالح " ثم قال : " ويتألف هذا المصحف من أربعة وأربعين عرفاً ، يحاكى فيه كاتبه القرآن الكريم بترديد ما فى رسائل الدروز القديمة ، فيحاول أن يقلد أسلوب القرآن الكريم ويقتبس منه تارة ويضمن كلامه بعض آيات القرآن الكريم تارة أخرى ، خاصة آيات النعيم والعذاب ، حيث جعلها خاصة بمن يعبد الإله المعبود عندهم - الحاكم - فمن عبده فله النعيم ، ومن كفر به فقد حق عليه العذاب ، ويعلق أحد كبارهم (عاطف العجمى) على هذا المصحف بقوله : " يكاد يفوق القرآن بلاغة " [٣] . وبينما يؤكد شيوخ الدروز (ومنهم شيخ العقل الشيخ محمد أبو شقرا) أن الشريعة مستمدة من القرآن .. نرى مصحفهم المنفرد بذاته ينكر القرآن ويعتبره فرية فيقول : " لقد ضل الذين جحدوا الحكمة واتبعوا فرية صحف اكتبوها فى قبلة آبائهم ، يتلونها بكرة وعشياً ، وقالوا هذامن عندالله المعبود " وفيه : " إن مافى أيديكم لباطل وبهتان عظيم افترتموه أنتم وآباؤكم " [٤]

[١] مخطوطة فى تقسيم جبل لبنان عن الحركات الباطنية ص ٣٠٤

[٢] ص ٣١٤ / الحركات الباطنية / د. الخطيب نقلاً عن كتاب " أيها الدرزي عودة إلى عرينك " ص ٤٩

لمؤلف مجهول

[٣] المصدر السابق ص ٥٢

[٤] (عرف عاقبة المكذبين) ص ٢٤ ، ٢٤٢

وفى هذا المصحف المنفرد بذاته ، وصف المسلمين بالضلالة والشرك: "لقد ضل قوم اتجهوا بأجسادهم الى بيت خجارة قلوبهم ، وغلوا فى كفرهم ، فألبس عليهم كل يوم خمس صلوات وضلوا عن نهج صاحب البيت ، جل ذكره ، وهو معهم ... إلخ" [١] .

وقد ضمن الدكتور عبد المنعم النمر كتابه (الشيعية - المهدي - الدروز - حقائق ووثائق) بعض صور الأصل من هذا المصحف وفهرسا لما جاء فيه من (أعراف) . ومن الكتب التى وضعها جنبلاط مع العجمى هذا أيضا ، رسائل بعنوان (المصحف الموسومة بالشريعة الروحانية فى علوم البسيط والكثيف) وهى تشبه المصحف المنفرد بذاته ويتكون من خمسة رسائل [٢] . ويبدو أن العقيدة الدرزية ظلت جامدة على أصولها التى وضعها حمزة وبهاء الدين إلى أن ظهر الزعيم الدرزي كمال جنبلاط والذي حاول أن يطور دينه بكافة الطرق ، فحاول أن يرجع أصول مذهبه الى مسالك الحكمة فى التاريخ القديم من الفلسفة اليونانية وخاصة الأفلاطونية القديمة ، والمسيحية ، والبوذية ، والفرعونية ، والهندية ، والفارسية ، واليهودية ، إلى جانب الإسلام. لأن الحكمة فى نظره لا تختلف فى جوهرها ، لهذا قام بكتابة مصحفه المنفرد بذاته ليعزز وجهه نظره . ويتكون مصحف المنفرد بذاته من مائتين وست وسبعين صفحة بالبيانات التى ذكرت فى آخره بعد صفحة ٢٦٩ ... يشتمل على ثلاثة وأربعين عرفا - باعتبار عرف العهد والميثاق عرفا واحدا - أولها عرف الفتح ، وآخرها "بلاغ الحرمات . وعرف مسك الختام" [٣] . والأعراف كلها تدور حول الدعوة للإيمان بالحاكم ، وتدعيم النظرة إليه ، كإله معبود ، يتصرف فى الخلق كما يشاء ، فيغدق النعيم على المؤمنين به ، ويعذب الذين لا يؤمنون ! وقد اقتبس - كاتبه - كثيرا من آيات القرآن ، إما بنصها أو بتغيير فيها حسب مزاجه ، لتتصب على الذين لا يؤمنون بالحاكم معبودا لهم ، أو يؤمنون به [٤] .

وما يهمنى من (مصحف المنفرد بذاته) هذا أنه يظهر بوضوح موقف الدروز المعاصرين من القرآن الكريم ومن المسلمين أجمعين ، فيدغمهم جميعا بأنهم عاكفون على عبادة الأصنام وضالون ، ويستنكر عليهم تصديقهم للقرآن الكريم وما جاء فيه من وعد للمؤمنين بالنعيم ، ووصف لهذا النعيم .

[١] الشيعية - المهدي الدروز / د. عبد المنعم النمر ص ٢٥٧

[٢]

[٣] ، [٤] الشيعية - المهدي الدروز / د. عبد المنعم النمر ص ٢٦٣ ، ٢٦٦

جاء في عرف اسحق ص ٧٩ : "ضل الذين قالوا : إنا الى ربنا منقلبون ، وسيدخلنا الجنة التي وعدنا فيها ما لعين رأت ، ولاأذن سمعت ، ولاخطر على قلب بشر ، وسيطوف فيها علينا ولدان مخلدون ، بأكواب وأبارق ، وكأس من معين ، لاتصدع عنها ، ولا نحن بمنزفين ، ولحم طير مما يشتهون ثم حور عين كامثال اللؤلؤ المكنون ولاتريد أن نعيد عليك يا أبا اسحق قالتهم ، وما في أنفسهم من هذه الأدمة التي أوصلتهم بحبل آدمهم" ثم يقول بعد هذا مباشرة "قتل هؤلاء ما أصبرهم على نار جهنم ، وجحيم كبرياتهم" [١] .

والواضح بعد هذا أن عقلاء الدروز ومشايخهم قد حرصوا دائما على صرف الدروز - وبخاصة عامتهم وجهلائهم - عن فهم القرآن الكريم فهماً صحيحاً ، وعملوا على حجبهم عن احكامه ، وقدسلخوا لبلوغ غايتهم هذه مسلكين : المسلك الأول هو تأويل النصوص القرآنية تأويلاً باطنياً خاصاً يخرجها من باطن التأويل ، وهذا مسلك حمزة بن علي وبهاء الدين ومن تبعهم . أما المسلك الثاني فهو ما سلكه جن بلاط ومن معه بوضعهم كتاباً يطل العمل بالقرآن الكريم ، بل ينكره ويعتبره فرية وبهتان عظيم . والهدف من الأسلوبين واحد ، وهو الإبتعاد بأتباع مذهبهم عن المصدر الرئيسي والأساسي الذي يقوم عليه بناء الإسلام الحق ، وهو القرآن الكريم .

حكم علماء الإسلام في الدروز

وبعد البحث في موقف الدروز من أركان الإسلام ، ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وكتابه القرآن الكريم ، يخرج البحث بنتيجة لامفر من اقرارها وهى ان هذا المذهب لاصلة له بالإسلام والمسلمين ، وهى نتيجة معروفة لدى علماء الإسلام قديما وحديثا ، وان غابت عن عامة المسلمين.

ولقد ذكرهم شيخ الإسلام ابن تيمية هم والنصيرية في جواب سائل سأله : "والدرزية هم أتباع هشتكين الدرزي ، وكان من موالى الحاكم أرسله الى اهل وادى تيم الله بن ثعلبة ، فدعاهم الى الإلهية الحاكم ويسمونه البارى العلام ، ويخلفون به ، وهم من الاسماعيلية القائلين بأن محمد بن اسماعيل نسخ شريعة محمد بن عبد الله ، وهم أعظم كفرا من الغالية ، يقولون بقدم العالم ، وانكار المعاد ، وانكار واجبات الإسلام ومحرماته ، وهم من القرامطة الباطنية الذين هم أكفر من اليهود والنصارى ومشركى العرب ، وغايتهم أن يكونوا فلاسفة على مذهب أرسطو وأمثاله ، أو مجوسا . وقولهم مركب من قول الفلاسفة والمجوس . ويظهرون التشيع نفاقا ، والله أعلم" [١] . " فقال شيخ الإسلام ردا عليه : كفر هؤلاء ممالا يختلف فيه المسلمون ، بل من شك في كفرهم فهو كافر. مثلهم لا هم بمنزلة أهل الكتاب ولا المشركين ، بل هم الكفرة لضالون فلا يباح أكل طعامهم ، وتسبى نساؤهم ، وتؤخذ أموالهم فانهم زنادقة مرتدين لا تقبل تربتهم ، بل يقتلون أينما تقفوا ويلعنون كما وصفوا ، ولا يجوز استخدامهم للحراسة والبوابة والحفاظ . ويجب قتل علمائهم وصلحائهم لئلا يضلوا غيرهم ، ويحرم النوم معهم فى بيوتهم ، ورفقتهم ، والمشى معهم ، وتشييع جنازهم اذا علم موتها . ويخرم على ولاة أمور المسلمين إضاعة مأمور الله من إقامة الحدود عليهم بأى شئ يراه المقيم ولا المقام عليه" [٢] .

ويضيف رحمه الله قائلا : ((ولايجوز دفنهم في مقابر المسلمين ، ولا يصلى علي من مات منهم . أما استخدام مثل هؤلاء في تغور المسلمين أو حصونهم أو جندهم فانه من الكبائر ، وهو بمنزلة من يستخدم الذناب لرعى الغنم .

[١] الشيعة والتشيع / إحسان إلهي ظهير ص ٢٣٨

[٢] المرجع السابق عن فتاوى شيخ الإسلام ج ٣٥ ص ١٦١ - ١٦٢

وإذا أظهروا التوبة ففى قبولها منهم نزاع بين العلماء فمن قبل توبتهم اذا التزموا بشريعة الاسلام اقر أموالهم عليهم ومن لم يقبلها لم تنقل الي ورثتهم من جنسهم ، فان مالهم يكون فيناً لبيت المال ، لكن هؤلاء اذا أخذوا فانهم يظهرות التوبة ، لأن أصل مذهبهم التقية وكتمان أمرهم ، وفيهم من يعرف ، وفيهم من قد لايعرف ، فالطريق في ذلك أن يحتاط في أمرهم ، فلا يتركون مجتمعين ولا يمكنون من حمل السلاح ، ولا أن يكونوا من المقاتلة ويلزمون في شرائع الاسلام ويجب علي كل مسلم أن يقوم في ذلك بحسب مايقدر عليه من الواجب ، فلا يحل لأحد أن يكتم مايعرفه من اخبارهم ، بل يفشيها ويظهرها ليعرف المسلمون حقيقة حالهم

والمعاون في كف شرهم وهدايتهم بحسب الامكان له من الأجر والثواب ما لا يعلمه الا الله تعالى ، فان المقصود بالقصد الأول هو هدايتهم)) [١] .
بقى أن نقول أن دروز اليوم ثلاثة أصناف :

١- قسم الزعماء السياسيين والروحانيين : هؤلاء متمسكون بديانتهم تمسكهم بمصالحهم فكلمة تمكن أفراد الطائفة من دينهم ، دانوا بالولاء والطاعة العمياء لرؤسائهم فهم يحافظون علي الدين حفاظا علي مراكزهم ومكاسبهم .

٢- وعامة الطائفة وجدوا آباءهم علي ملة وهم علي آثارهم مقتدون فهم عناصر طيبة بيد الرؤساء لايعملون فكرهم في صلاح عقيدتهم أو سلامتهم بل يأخذون من شيخ العقل الذي أخذ عن أسيادهم المعصومين .

٣- أما القسم الثالث وهم المتقفون : جلهم لا يؤمنون بعقائد الطائفة لأنها مرفوضة بمنطق العقل السليم لذلك نراهم بعيدين عنها دون أن يتعرضوا لها بسوء حفاظا علي ترابط أفراد الطائفة وقد التزم الكثيرون منهم الأحزاب القومية والسياسية [٢] .

وعلي عاتق هذا القسم الثالث من المتقفين تقع مسئولية اعادة نشر الاسلام بين صفوف الدروز . كما ينبغي أن يحال بين العوام منهم ، وبين مشايخهم الذين مازالوا يصرون علي تلك الضلالات المهينة للعقل الانساني ، وهذا ماطالب به الشيخ محمد رشيد رضا في أحد فتاويه التي سنل عنها [٣] .

[١] الحركات الباطنية ص ٣١٦ عن فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ج ٣٥ ص ١٥٥ - ١٦٢

[٢] دراسات في الفرق والمذاهب ص ١٦٢ / عبد الله الأمين

[٣] فتاوى الإمام محمد رشيد رضا ج ١ ص ٢٧٦

نقد موقف الأمير شكيب أرسلان من الدروز

إن القارئ لمقال الأمير شكيب أرسلان عن الدروز والذي جعل عنوانه :
 ((ولاتقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً)) يشعر أن الأمير ينطلق في دفاعه عن
 إسلام الدروز إنطلاقاً عاطفياً ، وهذه النظرة العاطفية التي تناول بها الأمير موضوع مقاله
 غلبت علي النظرة العلمية الموضوعية التي كان ينبغي عليه أن يلتزمها في مناقشة رأي
 القائلين بكفر الدروز وخروجهم عن جملة المسلمين .

فمع تأكيد الأمير أن الدروز يقولون عن أنفسهم أنهم مسلمون ويؤدون شعائر الاسلام لم
 يأتي دليل واحد يؤيد به صحة قوله ، فالمعروف عن الدروز أنهم هجروا المساجد ولجأوا
 الي الخلوات .

ثم يقول أن الدروز يلتقون موتاهم (واذا جاء منكر ونكير وسألاك : مادينك ، ومن
 نبيك ، وما كتابك ، ومن اخوانك ، وما قبلك ؟ فقل لهما : الاسلام ديني ، وحمد نبي ،
 والقرآن كتابي ، والكعبة قبلتي ، والمسلمون اخوتي .

والملاحظ علي النص السابق أن الأمير لم يشر فيه إلى السؤال الأهم وهو من ربك ،
 فإن أجاب المسؤول ربي الله الذي لا اله الا هو ، فهو في جملة المسلمين حقاً ، أما ان أجاب
 بأن ربه الحاكم بأمر الله فهو خارج من الاسلام باجماع المسلمين مهما صلي وصام وزعم
 أنه من المسلمين .

أما قول الأمير شكيب ردا علي من قال أن عقائد الدروز السرية الباطنية التي تعرفها
 طبقة العقال تحتوى علي ما يصادم أركان عقيدة أهل السنة والجماعة ولا يتفق معها في شيء
 بقوله : قد وجد في الاسلام أئمة كبار يترضي عند ذكرهم ، ولهم قباب تزار وتعلق فيها
 القناديل ، وكانوا يقولون بوحدة الوجود ، ثم يبين أن قولهم هذا مع مخالفتهم لمذهب السنة لم
 يخرجهم المسلمون من الاسلام ، ففي هذا القول اعتراف بأن عقائد الدروز الباطنية تحتوى
 علي ما يخالف عقيدة أهل السنة " ولا يتفق معها في شيء " ، وإن اعترض الأمير أن يترتب
 علي ذلك الحكم على الدروز بالخروج من الاسلام !

فالأمر شكيب أرسلان يريد أن يثبت أن فرقة الدروز فرقة اسلامية وهي أشبه بالفرق
 الصوفية التي لها تعاليمها الخاصة ولها تأويلاتها الخاصة ، ومع هذا فهي من جملة المسلمين .

ولقد كان الأمير شكيب - رحمه الله - من أعظم رجال العرب والمسلمين ، دفاعاً عن العروبة والاسلام ، وحرصاً على تماسك الأمة فلا غرابة من حماسه في الدفاع عن الدروز ، وحرصه على أن يظلوا عرباً مسلمين ، وهم قومه الذين يفخر بانتسابه اليهم لانتسابهم الي قبائل عربية عظيمة ، ولتاريخهم الحافل في مناصرة الاسلام والمسلمين .

والأمير شكيب يرى في التمسك بالانساب أمراً محموداً ، فهو ضروري لأجل الدول الراقية المهيبة التي تريد أن تعرف أصول الشعوب التي اشتملت عليها ممالكها ، والخصائص التي عرف بها كل من هذه الشعوب بما يكون أعون لها على تهذيبها وحسن ادارتها [١] .

ويرى الأمير شكيب أن حفظ الانساب أمر ضروري لمن يسعى في اصلاح قومه أو نوعه بطريق الترقية والتهديب لأن الأخلاق والميول والنزعات المختلفة تتوارث كما تتوارث الأمراض والأعراض الصحية ، والدماء الجارية [٢] .

ويتحدث عن تمسك العرب بالأنساب في تعليقاته على كتاب تاريخ ابن خلدون فيرى أن تمسكهم بأنسابهم كان يثير فيهم حمية ونخوة وتنافس على المجد من جهة ، وفتن وغداوات تصدع وحدتهم من جهة أخرى ، ويقرر أن الاعتزاز بالنسب اذا لم يؤد الي الانقسام عمل كريم وسنة حميدة [٣] .

ولقد عنى شكيب في كتاب (روض الشقيق) وغيره بالحديث عن أسرته ونسبها ومفاخرها ، فليس غريب أن يقف مدافعاً عن نسبتها العربية ، وعن بقائها في الاسلام . ومن أهم مايجد في مقال الأمير حرصه الشديد على إسلام قومه ، وعدم رضاه بغيره بدلاً ، وقوله أن الدروز فرقة إسلامية قبل كل شيء وهو في ذلك مثله مثل الأمير عبد الله التتوخي الملقب بالسيد المتوفي سنة ٨٨٤ هـ بمدينة عبيدة ، وكان من الذين عملوا على العودة بالدروز الي مذهب أهل الجماعة والسنة [٤] ومثل عادل بك النكدى الذى قال في خطبة له حينما حاول الفرنسيون التفريق بين الدروز والمسلمين : " ان الدروز مسلمون كانوا ولايزالون وأنهم لولم يكونوا كذلك لصيرتهم عربيتهم مسلمين " .

[١] تاريخ ابن خلدون ، ملحق الجزء الأول ص ٣

[٢] نفسه ص ٣-٤

[٣] شكيب أرسلان داعية العروبة ، أحمد الشرباصى ص ١٥

[٤] طائفة الدروز ، محمد كامل حسين ص ١٢٧

ولكن يبدوا أن جهود الأمير شكيب أرسلان وغيره ممن حرصوا على ألا يقطع الدروز صلتهم باخوانهم المسلمين وحاولوا أن يدفعوا عن الدروز تهمة الانسلاخ من الاسلام يبدوا أن جهودهم هذه قد تبددت بعدما ظهر في العصر الحديث من بين الدروز زعماء ابتعدوا بالفكر الدرزي عن الاسلام بعدا شاسعا ، فهذا الزعيم الدرزي كمال جنبلاط (وله احترامه واجتهاده بين رجال الدين وأراؤه مسموعة بينهم) يقول في حديث مع الدكتور مصطفى الشكعة وهو مدون في كتاب (اسلام بلا مذاهب) : ان الدروز اعتنقوا الاسلام في مرحلة من مراحل عقيدتهم ولما كانت العقيدة متطورة عندهم فقد تحولوا عن الاسلام الى دين آخر مستقل هو (الدين الدرزي) [١] ١٥١ هـ .

[١] الشيعة ، المهدي ، الدروز ، عبد المنعم النمر ص ٢٨٢-٢٨٣ .

موقف الأمير من المعتزلة والأشاعرة

١ - فرقة المعتزلة

يعرض الأمير شكيب فى تعليقاته على كتاب حاضر العالم الإسلامى ، للمستشرق ستودارد ، مذهب فرقة المعتزلة ، وهى الفرقة التى يرى فيها علماء أوروبا دائما طبقة تمثل الفكر الحر المطلق ، وتريد أن تتخلص من قيود التقليد الباعث الى الجمود الذى رسا عليه المجتمع الإسلامى [١] .

وفى البداية يروى الأمير ما قيل فى سبب تسميتهم بالمعتزلة أن أحد أئمتهم واصل بن عطاء كان يقرأ على الحسن البصرى ، ثم اعتزله لمسئلة خالفه فيها ، أما المعتزلة فيطلقون على انفسهم "أهل التوحيد والعدل" ثم يفصل ذلك فيقول : " أما التوحيد فلأنهم نفوا عن الله تعالى الصفات القديمة كالجياه ، والعلم ، والإرادة ، والقدرة ، ثم قالوا إنه حى بذاته ، عالم بذاته ، مريد بذاته ، قادر بذاته ، ولم يقولوا كالأشاعرة وغيرهم حى بحياه ، عالم بعلم ، قادر بقدرة ، مريد بإرادة ، بحيث أن الصفة هى غير الموصوف " [٢] .

" أما العدل فلكونهم يقولون إن العبد إنما يثاب ويعاقب على طاعته ومعصيته ، لأنه هو الخالق لأفعال نفسه [٣] دون الله تعالى الذى ينزه عن أن يضاف إليه خلق الشر " [٤] .

" وإذا كان العبد بحسب قولهم هو الخالق لأفعال نفسه ، فليس يلزم أن يكون هناك قدر سابق ، بل الأمر أنف ، يعنى مستأنف . ولهذا سماهم الناس (القدرية) " [٥] .

والأمير فى موقفه هذا يعبر عما كتبه خصوم المعتزلة عنهم ، أما المعتزلة أنفسهم فلم ينكروا قضاء الله السابق بالمعنى الذى عبر عنه القرآن بقوله : ((وكل شئ أحصيناه فى إمام مبين)) ، ولكن جميعهم أنكروا أن يكون قضاء الله بهذا المعنى يحمل معنى الجبر أو

[١] شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامى ، ج٤ ص ٣٢٣

[٢] المرجع السابق ج٤ ص ٣٢٣

[٣] إن المعتزلة اذا قالوا إن الانسان خالق افعاله فلايعنون بالخلق هنا معنى الإبداع من العدم ، لأن ذلك لله وحده ، وهم قد فصلوا بين خلق الجوهر فجعلوه لله ، وبين خلق العرض فجعلوه من مقدور الإنسان ...د. محمد السيد الجليلند ، قضية الخير والشر ، ص ٢٨٧

[٤] شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامى "مرجع سابق" ص ٣٢٣

[٥] شكيب أرسلان ، المرجع السابق ج٤ ص ٣٢٣

الإكراه فلقد فهموا القضاء الإلهي على معنى تنزيهي يرتفع به عن مباشرة القبائح أو 'التعلق بها' ، لأنه تعالى بيده الخير" [١] . وهنا يجب التفرقة بين نوعين من القضاء الإلهي :

النوع الأول : قضاء كوني قدرى ضرورى الوقوع تعبيراً عن مشيئة الله النافذة فى ملكه التى لا تخطو من حكمه والغاية ، ونفاذ القضاء الكونى فى ملك الله لا يحاسب عليه الإنسان ثواباً أو عقاباً . [٢] .

النوع الثانى : قضاء دينى تكليفى شرعى مبنى على الاختيار وإرادة الإنسان وهو يتعلق بالشرعية أمراً ونهياً ، وهو مناط الثواب والعقاب فى الآخرة [٣] .

والمعتزلة فهموا أن القضاء لا يكون إلا دينياً فقط وأهملوا القضاء الكونى ، مع أن العبادات إذا وقعت فعلاً كانت بقضاء الله ديناً وكوناً ، والمعصية إذا وقعت كانت بقضاء الله كوناً لا ديناً ، والمؤمن مطلوب منه أن يؤمن بالنوعين من القضاء [٤] . " كما أخطأ المعتزلة حين ظنوا أنه يجوز للمؤمن أن يحتج بقضاء الله على المعصية لأن الواجب فى ذلك أن يؤمن بالقضاء ولا يحتج به لأن الله قد أبطل هذا الاحتجاج بالقضاء والقدر حين لجأ بعض الناس إلى ذلك فأخبر الله أن : "... حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب عظيم " لأن الإيمان بالقضاء واجب والاحتجاج به مرفوض وباطل" [٥] .

ويضرب الأمير مثلاً يوضح به الفرق بين مذهب السنة ومذهب الاعتزال فيقول : "كان مرة أحد أئمة المعتزلة ، يباحث أحد أئمة أهل السنة ، فقال المعتزلى : "الحمد لله الذى تنزه عن الفحشاء " فقال السنى : "الحمد لله الذى لا يقع فى ملكه إلا ما يشاء " . فقال المعتزلى : " أريد ربك أن يعصى ؟ " فقال السنى : " أيعصى ربك جبراً ؟ " [٦] .

والخطأ هنا أن المعتزلة خلطوا بين الإرادة الدينية والكونية ، كما لم يفرقوا بين القضاء الدينى والقضاء الكونى فأنكروا أن تكون المعصية مرادة لله ، كما أنكروا أيضاً أن تكون بقضاء الله [٧] .

[١] ، [٢] ، [٣] ، [٤] ، [٥] د . محمد السيد الجليند ، قضية الخير والشر ص ٧ ، ٨٦ ، ٨٧

[٦] شكيب أرسلان ؛ حاضر العالم الإسلامى ، ص ٣٢٣

[٧] د . محمد السيد الجليند ، قضية الخير والشر ، مرجع سابق ص ٨٨

والأمير شكيب أرسلان يرى " أن جمهور أهل السنة فرقوا بين الكسب وبين خلق الأفعال ، وجعلوا للإنسان جزءاً اختيارياً هو متناط الثواب والعقاب ، وشبهوا العبد الذى يعصى بعامل أمره السلطان بأن يكون عاملاً على بلد كذا وأوصاه بالعدل والتقوى ، فذهب الى عمله وظلم الرعية وارتكب المعاصى ، فالسلطان من جهه لم يأمره بالظلم ولأباح له تلك الأعمال الموبقة ، ومن جهه أخرى هو السبب فى وصول أذى ذلك العامل الى الرعية لأنه لو لا تولية السلطان إياه ما تمكن من ظلمهم" [١] .

والأمير شكيب فى موقفه هذا متأثر بما ذكره أستاذه الإمام الشيخ محمد عبده الذى قال : أن كل الطوائف الإسلامية فى هذا الوقت " يعتقدون بأن لهم جزءاً اختيارياً فى أعمالهم ، ويسمى الكسب ، وهو مناط الثواب والعقاب عند جميعهم ، وانهم محاسبون بما وهبهم الله من هذا الجزء الاختيارى ... وهو مورد التكليف الشرعى وبه تتم الحكمة والعدل " [٢] . وموقف الأمير هنا متأثر أيضاً بنظرية (الكسب) عند الأشاعرة ، " فلقد ذهب أبو الحسن الأشعرى فى تحديد علاقة الإنسان بفعله إلى أن قدرة الإنسان لا أثر لها فى خلق الفعل أو إحداثه ولا فى صفه من صفات الفعل وإنما تتعلق بالفعل على وجه آخر يسمى (كسباً) فالفعل مخلوق لله مكسوب للعبد فى وقت واحد ، وأن الله تعالى يحاسب العبد فى الآخرة ليس لكونه خالقاً للفعل أو فاعلاً له وإنما لكونه محلاً للفعل وكاسباً له " [٣] .

" والموقف الحق فى ذلك هو ما كان عليه سلف الأمة وأئمتها حيث أثبتوا قدرة الإنسان وقالوا أنه فاعل لفعله حقيقة لامجازاً ، والله خالق فعله حقيقة لامجازاً . فقدرة الله تتعلق بالفعل من جهة الخلق من عدم ، وقدرة الإنسان تتعلق به من جهة فعله وإحداثه" [٤] .

[١] شكيب أرسلان ، حاضر العالم الاسلامى ، ص ٣٢٤ .

[٢] رشيد رضا ، تاريخ الأستاذ الإمام ، ج ٢ ص ٢٦١ .

[٣] د . محمد السيد الجليند ، قضية الخير والشر ، ص ٣٠٣ .

[٤] د . محمد السيد الجليند ، قضية الخير والشر ، مرجع سابق ص ٣١٧ .

٢ - الأشاعرة

يروى الأمير شكيب أن أبو الحسن الأشعري المولود بالبصرة (سنة ٢٦٠) المتوفى ببغداد (سنة ٣٢٤) ، قد بقى إلى الأربعين من عمره ملازماً لأبي على الجبائي حامل لواء الاعتزال فى عصره والمتوفى (سنة ٣٠٣) ، أخذاً برأيه ، إلا أنه لاحظ فى آخر الأمر أن كثيراً من أقوال المعتزلة لا تلتئم مع روح الشرع ، ففارقهم وأخذ يرد عليهم ، وكتب كتباً كثيرة قيل بلغت ٣٠٠ مصنف [١] .

وقد رأينا الأمير يذكر رأى الأشاعرة فى صفات الله تعالى عندما عرض مذهب المعتزلة فى التوحيد ، كما وجدناه متأثراً بنظرية (الكسب) الأشعرية عند مناقشته لمسئولية الانسان عن أفعاله والعدل عند المعتزلة . والأمير لا يخفى إعجابه بالأشعري ، وينقل عن دائرة المعارف الإسلامية الفرنسية قولها : " إنه يعود إليه الفضل باستعمال المنطق والجدل فى العقيدة ، خلافا لعلماء الإسلام الأولين ، وأنه بذلك تمكن من مناظرة المعتزلة ، وسائر البدع ، فهو بالفعل واضع الفلسفة العقلية الإسلامية أى علم الكلام " [٢] .

ويقول الأمير شكيب أن الأشعري بعد أن اعتزل الاعتزال ، صار ناصراً للسنة حتى صار نصف المسلمين تقريباً أو أكثر أشعرية فى علم الكلام ، ويستشهد بما ذكره عبد الوهاب السبكي فى (طبقات الشافعية) أن المالكية بأجمعهم وأكثر الشافعية هم أشاعرة ، أما الحنفية فيرجحون مذهب الماتريدى ، وهو يتفق فى الأساس مع الأشعري ، ويباينه فى نقاط ثانوية .

أما الحنابلة فيردون كلام الأشعري ويأخذون العقيدة بمثل ما أخذها السلف أى بدون فلسفة ، وقد يفرط بعضهم برفض التأويل فيرميهم الأشاعرة بالتجسيم ، وممن رد على الأشاعرة ابن حزم الظاهري [٣] .

[١] شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامى ، ص ٣٢٤

[٢] ، [٣] المرجع السابق ص ٣٢٥

ثم يعلق الأمير على ذلك بتأكيد إعجابه بشيوخ الأشاعرة ومتكلميهم فيقول : "ومما لا مشاحة فيه أن أعظم متكلمي الإسلام وسيوف السنه ، هم من الأشاعرة وذلك مثل : الباقلائي ، والقشيري ، وإمام الحرمين أبي المعالي الجويني ، ولو لم يكن منهم إلا حجة الإسلام الغزالي لكفى" [١] .

[١] شكيب أرسلان ، حاضر العالم الاسلامي ، ص ٣٢٥

موقف الأمير شكيب أرسلان من الخوارج

- نشأة الخوارج

- فرق الخوارج وعقائدهم :

الفرقة الأولى : المحكمة

الفرقة الثانية : الأزارقة

الفرقة الثالثة : النجدات

الفرقة الرابعة : العجاردة

الفرقة الخامسة : الشعالية

الفرقة السادسة : الصفرية

الفرقة السابعة : الأباضية

موقف الأمير شكيب أرسلان من :

الخوارج

نشأة الخوارج :

نشأت فرقة الخوارج فور إعلان نتيجة (التحكيم) بين أبي موسى الأشعري وعمرو بن العاص ، وذلك عندما طال النزاع بين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، ومعاوية بن أبي سفيان ، واشتدت الحرب (في صفين) واتسع الخرق ، ومل كثير من المسلمين القتال ، وتذكروا فيما بينهم في طريقة ترفع الخلاف بدون استمرار على سفك الدماء ، فكانت هذه الطريقة هي (التحكيم) « (١)

ويرى أن معاوية رضي الله عنه حينما رأى بوادر انهزام جيشه استشار صاحبه عمرو بن العاص رضي الله عنه في حيلة تباعد بينه وبين عار الهزيمة فأشار عليه عمرو بن العاص برفع المصاحف على أسنة الرماح والمطالبة بتحكيم كتاب الله بين الفريقين وقد أثرت هذه الحيلة في صفوف جيش الخليفة الراشد رضي الله عنه حتى قال له الأشعث بن قيس الكندي وجماعة معه «وكان أميراً لعثمان على أذربيجان» القوم يدعوننا إلى كتاب الله وأنت تدعوننا إلى السيف فقال لهم علي رضي الله عنه : أنا أعلم بكتاب الله وأشار رضي الله عنه إلى أن هذه حيلة ثم دعا رجاله إلى الاستمرار في القتال فأصر الأشعث ورفاقه على إيقاف الحرب وقالوا لعلي رضي الله عنه لترجعن الأشر عن قتال المسلمين وإلا فعلنا بك كما فعلنا بعثمان واضطر علي رضي الله عنه إلى أن يأمر الأشر التحمي بوقف القتال . (٢)

فهذه الفئة التي سئمت الحرب ، حملت علياً رضي الله عنه على قبول (التحكيم) بينه وبين معاوية ، وهي التي أشارت بإقامة أبي موسى الأشعري حكماً عنه ، ويرى

١ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ٤ ص ٣٢٦ .

٢ - د . عبد القادر شيبه الحمد ، الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة ، ص ١٠٤ - ١٠٥ .

الأمير (شكيب أرسلان) أن طريقة التحكيم في حد ذاتها كواسطة في حل المنازعات بين المتخاصمين سواء أكانوا دولاً أو فرقاً هي طريقة فذة سبق بها المسلمون عصرهم ، وهي التي يجاهد كثير من عقلاء الأوربيين اليوم في جعلها هي المرجع الأول في فض المنازعات بين الدول بالطرق السلمية ، غير أن القصة المشهورة عن سير التحكيم بين علي ومعاوية رضي الله عنهما تبين سبب تفجر قيام الخوارج في الحال «إذ تعالت الهتافات من معسكر علي : كفر الحكمين (لا حكم إلا لله) وانقلب المؤيدون أعداء وأصبحوا أكثر خطراً على علي من جيش معاوية» (١)

ويروي الأمير شكيب أرسلان تلك القصة المشهورة عن خدعة عمرو بن العاص لأبي موسى الأشعري «بأن اتفق معه علي أن يخلعا علياً ومعاوية جميعاً ، ويرحبا المسلمين من هذه الحرب الطاحنة ، وأنهم بعد ذلك يقيمون لهم خليفة يختارونه ، ولما كان أبو موسى أكبر سناً من عمرو ، كان التقدم له في الكلام ، فقام وأشهد أنه خلعهما ، وجاء الدور إلى عمرو ، فقام وأشهد على أنه خلع علياً دون معاوية ، وكانت لهذه الخدعة زنة في الإسلام لا تزال الناس تتذكرها إلى اليوم ، ويظل ذلك التحكيم ، واستمر القتال بين الفريقين» (٢)

وهذه الرواية على النحو الذي ذكره (شكيب) محل شك إذ يرجع الدكتور الريس رواية المسعودي لأنها تتفق مع العقل وتلائم مع شخصية أبي موسى الأشعري الصحابي الجليل ، لأن هذه الرواية تنفي حدوث الخدعة ، وقد أخذ بالنص المروي عنها حيث قال فيه (ووجدت في وجه آخر من الروايات أنهما اتفقا على خلع علي ومعاوية ، وأن يجعلا الأمر بعد ذلك شورى ، يختار الناس رجلاً يصلح لها) ، وبذلك أصبحت النتيجة الأخيرة للتحكيم ، رد الأمر إلى الأمة . (٣)

كما يروي الدكتور عبد القادر شيبه الحمد مسألة التحكيم بطريقة مختلفة فيقول :

١ - د. مصطفى حلمي ، نظام الخلافة ، ص ١٥٤ .

٢ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، (مرجع سابق) ص ٣٢٦ .

٣ - د. محمد ضياء الريس ، النظريات السياسية الإسلامية ، ص ٤٨ ط ١٩٥٠م .

« .. ولما حان موعد التحكيم واجتمع الحكمان في دومة الجندل لم يؤد اجتماعهما للاتفاق على كلمة سواء ، بل أعلن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه لا يوافق أبا موسى في خلع على ومعاوية وترك الأمر شورى ، وإنما يخلع علياً ويثبت معاوية »^(١)

وأيا كانت الطريقة التي تم بها التحكيم ، فالثابت أنها أفرخت أول حزب سياسي في الإسلام هو الخوارج^(٢) ، فخرجت تلك الفئة من طاعة علي ومعاوية معاً ، وانفردت برأي غير رأي الجماعة ، وهو أنه لا حكم إلا لله ورسوله رأساً بدون خلافة ، فسماهم الناس من أجل ذلك خوارج^(٣).

فرق الخوارج وعقائدهم :

الخوارج فرق متعددة جمعهم الإمام أبو الحسن الأشعري في أربعة فقط ، وهم : الأزارقة والأباضية ، والصفرية ، والنجدية ، واعتبر أن كل الأصناف سوى هذه الفرق تفرعوا من الصفرية^(٤).

وقد ذكر الأمير شكيب أرسلان من فرق الخوارج تسع فرق ، وهم :

المحكمة ، والأزارقة ، والنجديات ، والبيهسية (*) ، والعجاردة ، والميمونية والأباضية ، والتعالبية ، والصفرية ، وقال إن هذه أشهر فرق الخوارج ، ويقال لهم أيضاً الشراة لقولهم إننا شرينا أنفسنا في طاعة الله أي بعناها بالجنة حين خرجنا على الأئمة الجائرة^(٥).

١ - د. عبد القادر شيبه الحمد ، الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة ، (مرجع سابق) .

٢ - د. مصطفى حلمي ، نظام الخلافة ، ص ١٥٥ (مرجع سابق) .

٣ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي (مرجع سابق) .

٤ - د. مصطفى حلمي ، نظام الخلافة ، ص ١٦٢ (مرجع سابق) .

٥ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي (مرجع سابق) ج ٤ ص ٣٢٦ وما بعدها .

(*) وقد عد الأمير شكيب أرسلان فرقة «البيهسية» على أنها فرقة رئيسية من فرق الخوارج ، ولكن المشهور عن أهل العلم أنها تابعة للإباضية ، و (البيهسية) هم أصحاب أبي بيهس الهيصم بن جابر - الذي خرج أيام الوليد - وهؤلاء يرون أنه لا حرام إلا ما وقع عليه النص بقوله تعالى «قل لا أجد فيما أوحى إلي محرماً» الآية ، ويكفرون الرعية بكفر الإمام . (شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ٤ ص ٣٢٧ (المرجع السابق) .

ويرى الأمير شكيب أن عمود مذهب الخوارج إنكار الخلافة ، وأن الحكم يستمد من القرآن رأساً فلا حاجة إلى الخليفة ، وأنهم يمنعون التأويل فيه ، وبعضهم ينكر كون سورة يوسف من القرآن ، ويقولون هي قصة من القصص ، وبعضهم يكفر بالكبائر ، ومنهم من يكفر بالإصرار على الصغائر ، ومنهم من يصبو فعله عبد الرحمن بن ملجم ذلك الشقي الذي قتل علياً .. ومنهم من يجوز نصب الإمام ولكن لا يشترطون فيه النسب القرشي . (١)

الفرقة الأولى : المحكمة

وهم الذين يمنعون التحكيم ويقولون (لا حكم إلا لله) ، وهم في دفاعهم عن هذا المبدأ يعتقدون أنه لا تحكيم في دين الله لأحد من الناس إلا بالله ، ولهذا لا يحكمون بينهم حكماً ، فلما حكم أبو موسى الأشعري بين علي ومعاوية ، ثم قام بخلع علي ، كفروهم لأنهم حسب إعتقادهم جعلوا الحكم لأبي موسى الأشعري ، وينبغي ألا يكون هناك حكم إلا لله تعالى (٢) ، ثم ذهبوا إلى النهروان وعسكروا هناك ، وكانوا على ما يروى أربعة آلاف مقاتل ، فصمد إليهم علي وما زال يقاتلهم ويستأصلهم اتقاء الفتنة وانتشار نظام الأمة ، إلى أن أفناهم على بكرة أبيهم ، ولم يفلت منهم سوى تسعة نفر ، قيل ذهب منهم اثنان إلى عمان ، واثنان إلى كرمان ، واثنان إلى سجستان ، واثنان إلى الجزيرة ، وواحد إلى اليمن . (٣)

ويروي أن علياً رضي الله عنه سألهم قبل بدء القتال : ماذا نقمت مني ، قالوا نقمتنا منك أنا قاتلتنا بين يديك يوم الجمل فلما انهزم أصحاب الجمل أبحت لنا ما وجدنا في معسكرهم من المال ومنعتنا من سبي نساءهم وذرائعهم فكيف استحللت مالهم دون النساء والذرية ، فقال رضي الله عنه إنما أبحت لكم أموالهم بدلاً عما كانوا أغاروا عليه من بيت مال البصرة قبل قدومي عليهم أما النساء والذرية فلم يقاتلونا وكان لهم حكم

١ - المرجع السابق نفسه .

٢ - د. مصطفى حلمي ، نظام الخلافة ، ص ١٥٨ (مرجع سابق) .

٣ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ٤ ص ٣٢ (مرجع سابق) .

الإسلام بحكم دار الإسلام ثم لو أبحت لكم النساء أيكم كان يأخذ عائشة في سهمه فخجل القوم . (١)

ومن شبههم التي نقموا على علي رضي الله عنه فيها بزعمهم أنه محا إسمه من إمرة المؤمنين يوم كتب إلى معاوية ، ولم يضرهم - أي الخوارج - بالسيف حين نكوصهم عنه يوم صفين وكان واجبه أن يفعل ذلك ليرجعوا إلى الله ، وحكم الحكمين ، وزعم أنه وصى فضيع الوصية .

ورد عليهم علي رضي الله عنه مدافعاً عن نفسه في كل ما وجه إليه ، ودحض شبههم الباطلة بالحجة البالغة معتمداً على كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . (٢)

أما نزع إسمه من إمرة المؤمنين فكان لرسول الله صلوات الله عليه أسوة حسنة لأنه قبل أن يتخلى عن (محمد رسول الله) إلى (محمد بن عبد الله) لأن المشركين في صلح الحديبية لم يقبلوا إلا هذا وحجتهم في رفضهم أنهم لو آمنوا أنه رسول الله ما حاربوه ، وقبل النبي صلى الله عليه وسلم إذ قال : « إن اسمي واسم أبي لا يذهبان بنبوتي وأمري » . (٣)

ورد على دعواهم بامتناعه عن قتلهم يوم صفين ، فاحتج بالآية الكريمة : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » فعزف عن محاربتهم لكثرة عددهم ولقلة أعرانه .

وتحكيمة الرجال أيضاً له من آيات الله أسانيد ، فإن الله حكم في أرنب يباع بربع درهم بقوله « يحكم به ذوا عدل منكم » ، فلو استرشد الحكماء بما جاء بكتاب الله (لما وسعني الخروج عن حكمهما) (٤)

وقد أثر بيان علي رضي الله عنه فيهم فقال أكثرهم صدق والله وأعلن التوبة

١ - د. عبد القادر شبيبة الحمد ، الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة ، ص ١٠٧-١٠٨ (مرجع سابق) .

٢ - د. مصطفى حلمي ، نظام الخلافة ، ص ١٦٤-١٦٥ (مرجع سابق) .

وانحاز إليه منهم ثمانية آلاف مقاتل وأصر أربعة آلاف على القتال بقيادة عبد الله بن وهب الراسبي ، فكانت موقعة النهروان في يوم ٩ صفر سنة ٣٣ هـ .

الفرقة الثانية : الأزارقة

وهم أتباع نافع بن الأزرق ، وهم الذين خرجوا بفارس وكرمان أيام ابن الزبير ، وقاتلهم المهلب بن أبي صفرة .^(١)

وخلاصة مذهبهم أنهم يحكمون على مخالفيهم من هذه الأمة بأنهم مشركون وكانت المحكمة الأولى تقول هم كفار لا مشركون .^(٢)

وهم يكفرون علماً مع جمع من الصحابة ، ويصوبون فعل ابن ملجم ، ويكفرون القاعدين عن القتال مع الإمام ولو قاتل أهل دينه ، ويبيحون قتل أطفال المخالفين ونسائهم ، ويسقطون الرجم عن الزاني المحصن وحد القذف عن قاذف المحصن دون المحصنة ، ويكفرون بالكبائر ويقولون إن التقية غير جائزة .^(٣)

الفرقة الثالثة : النجدات

وهم أصحاب نجدة بن عامر ، وهؤلاء يكفرون بالإصرار على الصفات دون فعل الكبائر - فالإصرار على الصغيرة شرك في زعمهم وارتكاب الزنا والسرقه وشرب الخمر دون إصرار ليس بشرك إذا كان المرتكب من موافقيهم ، ويستحلون دماء أهل العهد والذمة وأموالهم .^(٤)

ومن مذهبهم إكفار من أكفر القعدة منهم عن الهجرة إليهم ، وإكفار من قال بإمامة نافع بن الأزرق ، وأن الناس ليسوا بحاجة إلى إمام قط (وهو قول المحكمة) ، وجواز التقية .^(٥)

١ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي (مرجع سابق) ص ٣٢٧ .

٢ - د. عبد القادر شيبه الحمد ، الأديان والفرق (مرجع سابق) ص ١١٢ .

٣ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي (المرجع السابق) .

٤ - د. عبد القادر شيبه الحمد ، الأديان والفرق (المرجع السابق) ص ١١٨ .

٥ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي (المرجع السابق) .

الفرقة الرابعة : العجاردة

وهم أتباع عبد الكريم بن عجرد من أهل فارس ، وهو في أصل مذهبه من النجديات ، ونسبه ابن حزم الى الصفرية ، وأشار الشهرستاني إلى أنه كان في الأصل من أصحاب أبي بيهس الآتي ذكره إن شاء الله .

ولما شاع ذكر عبد الكريم هذا ودخل في فتنته كثير من الناس أخذه خالد بن عبد الله البجلي القسري وحبسه ، فلما حبس افترق أتباعه على ثمان فرق موالية لعبد الكريم وإن كان بعضها يكفر بعضا ، ومن هذه الفرق (الميمونية) وهم أتباع ميمون بن خالد ، وقد ذهب ميمون إلى إنكار عموم قدر الله ومشيتته وزعم أنه ليس لله تعالى في أعمال العباد مشيئة وليست أفعال العباد مخلوقة لله تعالى (وأن الله تعالى مريد الخير دون الشر) ^(١) ، وقال : إن أطفال المشركين في الجنة وأن أصحاب الذنوب كفار وأنه يجب قتال السلطان ومن رضي بحكمه ، وأما غير السلطان فلا يجب قتاله إلا إذا أغار عليهم أو طعن في دينهم أو كان دليلاً للسلطان .

كما أنكر الميمونية أن تكون سورة يوسف من القرآن الكريم وقد نسب هذا القول إلى عبد الكريم بن عجرد .

«ويقال إنهم يجوزون نكاح بنات البنات ، وبنات أولاد الإخوة والأخوات ، ورد ذلك في بعض الكتب ومن جملتها (صبح الأعشى) » ويضعف الأمير شكيب الروايات التي ينقلها (صبح الأعشى) عن كتب زعم أصحابها استباحة ذوات المحارم عند بعض الفرق المخالفة لأهل السنة ، ويعلق على ذلك بقوله : «إن اختلاف العقيدة يورث من التباغض والتنافر ما ينتهي بوضع أخبار كثيرة لا صحة لها وترويجها بين الناس حتى تصير قضية مسلمة .» ^(٢)

ولكن الميمونة لا يختلف الناس في كفرهم لأنهم أنكروا ما علم من دين الإسلام

١ - المرجع السابق نفسه .

٢ - عبد القادر شيبه الحمد ، الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة . (ص ١٣٣-١٣٤) (مرجع سابق) - (١١٩) .

بالضرورة كإنكارهم (سورة يوسف) وإباحتهم بنات أولاد الإبن وبنات أولاد البنت وبنات أولاد الإخوة وبنات أولاد الأخوات .

الفرقة الخامسة : الثعلبية

هم أتباع ثعلبة بن مشكان أو ابن عامر وقد كان مع عبد الكريم بن عجرد حتى اختلفا في شأن الطفل فكفر كل واحد منهما صاحبه .^(١)

وهم يرون الولاية على الصغير إلى أن يظهر عليه إنكار الحق فيتبرأون منه .^(٢)

الفرقة السادسة : الصفرية

وهم أتباع المهلب بن أبي صفرة ، ويرجع الشيخ الكوثري تصحيح الاسم إلى زياد بن الأصفر ، وقيل بل سما صفرية بسبب صفرة ألوانهم من شدة العبادة والسهر .^(٣)

ومن رأيهم أن التكفير يقع فيما ليس فيه حد ، كترك الصلاة ، أما ما كان من الكبائر فيه حد الزنا ، فيكفي فيه الحد ولا يجب فيه التكفير .^(٤)

الفرقة السابعة : الأباضية

وهؤلاء ينتسبون إلى عبد الله بن إباح^(٥) ، بكسر الهمزة وقد تلفظ بالفتح ، وكان أول خروج الأباضية في زمان مروان الثاني الأموي ، وكان يقودهم حينئذ عبد الله بن يحيى وأبو حمزة (١٢٩هـ) .

١ - عبد القادر شعبة الحمد ، الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة . (ص ١٢٣-١٣٤) (مرجع سابق) - ١١٩ .

٢ - شبيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ٤ ص ٣٢٩ (مرجع سابق) .

٤ - شبيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي (المرجع السابق) ج ٤ ص ٣٢٩ .

٥ - شبيب أرسلان (المرجع السابق نفسه) ، (ومن الغريب أن ابن حزم رحمه الله ذكر أن عبد الله بن إباح رجع عن قوله إلى قول الثعلبية ، ثم قال : فبرئ منه أصحابه فهم لا يعرفونه اليوم - د. عبد القادر شعبة الحمد ، الأديان والفرق (مرجع سابق) ص ١٣٩ - ويذكر المصطفى في التنبيه والرد على أهل الأهواء ، (أن الأباضية أصحاب إباح بن عمرو الذين خرجوا من الكوفة) عن د. مصطفى حلمي ، نظام الخلافة (مرجع سابق) ص ١٥٩ .

وقد تناول الأمير شكيب أرسلان فرقة الإباضية بتفصيل أكبر بكثير من تناوله لفرق الخوارج الأخرى ، كما فصل تاريخهم السياسي منذ نشأتهم حتى عصره ، وذلك لأن الإباضية أكثر فرق الخوارج إنتشاراً ، وكانت لهم بلدان ودول وحكومات كسانر فرق الإسلام الكبرى .^(١)

وخلاصة مذهب الإباضية كما بينها شكيب أرسلان أنهم « يرون أن مرتكب الكبيرة كافر للنعمة ، لا كافر بالله ، ويرون أن دار مخالفتهم من الإسلام دار توحيد ، ولكن دار السلطان منهم دار بغى ، وهم يحتجون على كل من يتهمهم بمخالفة السنة ، ويقولون أنهم هم وحدهم الذين لم يحيدوا عن السنة ، ويقال أنهم يزعمون كونهم هم وحدهم الفرقة الناجية من أصل الثلاث والسبعين فرقة ، وهم لا يذكرون بعد الرسول صلى الله عليه وسلم من الخلفاء إلا أبا بكر وعمر ، وأما عثمان وعلي فلا يعجبانهم إذ قد خالفا نهج الرسول والصحابين بزعمهم »^(٢)

« ويقولون بوجوب نصب الإمام بين المسلمين إذا توفرت القوة والعلم لنصبه ، وأن القرشية ليست بشرط في الخلافة ، بل يكفي أن يكون الخليفة متصفاً بالفضيلة والتقوى ، سائراً بموجب الكتاب والسنة لتصح خلافته ، فإن انحرف عنهما وجب خلعها . »
« ويقولون إن القرآن هو كلام الله خلقه الله تعالى ، وهو كقول المأمون العباسي ، وأنه تعالى لا يرى بالأبصار في الجنة ، وأن الثواب والعقاب أبديان ولا فناء للنعيم ولا الجحيم ، وأن الله يغفر الصغائر ولكنه لا يغفر الكبائر إلا بالتوبة »^(٣)

« وهم يرجعون إلى الكتاب والسنة فقط ولا يعملون بالإجماع والقياس ، بل عندهم محلهاما الرأي »^(٤)

« وهم يقولون : إن كل مسلم مكلف أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وأن على كل مسلم واجبات مفروضة نحو أخيه المسلم ، فمن لم يقوم بما فرض عليه من هذا

التضامن الديني خسر حقه في خثر إخوانه المسلمين عليه ، ووجبت معاملته نظير عدو إلى أن يتوب وينيب» (١)

ومما ذكره الأمير شكيب أرسلان عن تاريخ (الأباضية) السياسي ، أن هذا «المذهب الأباضي» وجد في بلاد عمان بانفرادها ، وشحط مزارها ، وحيلولة الفلوات من جهة ، والبحار من جهة أخرى ، بينها وبين سائر الأقطار أندوحة اتسع بها ، وسط جناحيه بدون زعج في قاصبتها ، وما زال ينتشر هناك حتى صار هو المذهب الغالب في بلاد عمان ومنها امتد إلى زنجبار . أما في شمال أفريقية فإن مذهب الأباضية ظهر في أواسط القرن الثاني للهجرة ، هو ومذهب الصفرية ، كلاهما من الخوارج ، وقد انتشرا كثيرا بين البربر الذين خرجوا مرارا على الدول العربية ، وكان أول دعائهم في شمالي أفريقية أبو الخطاب عبد الأعلى بن السماع المعافري الحميري اليماني ، خرج في جبل نفوسة ، وهو أول إمام للأباضية في تلك الأقطار ، ويقولون أنه أحد الدعاة الخمسة الذين يسميهم الأباضية «حملة العلم» (٢)

ونشير هنا إلى إحدى تعليقات الأمير شكيب أرسلان على تاريخ الأباضية السياسي ، لأهمية هذه الجملة في بيان عقيدة الأمير ، وتيقظه في فهمه لأهداف أعداء الإسلام ، ففي أثناء حديث الأمير عن الحركات السياسية والنزاع على السلطة في عمان في العصر الحديث ذكر شكيب أن (عزان بن قيس) ثار على (تويني بن المنيد سعيد) حاكم عمان ، وأعلن الطاعة لابن سعود سنة ١٨٦٤م .

يقول شكيب : «ولما كان الإنكليز يعلمون أن الوهابية دعوة وأن الدعوات الدينية لا سيما إلى مبادئ السلف من الإسلام يخشى منها ، اهتموا بصددهم عن بلاد عمان ، وامدوا تويني بالمدافع والأعتاد ، وأشاروا إلى رؤساء البلاد بأن ينضروا تحت لواء السيد تويني» (٣)

موقف الأمير شكيب أرسلان من

البابية والبهائية

١ - البابية :

البابية من الفرق الباطنية ، وتسمى البابية نسبة إلى رجل كان يقال له ميرزا محمد على الشيرازي ولد بإيران في غرة محرم سنة ١٢٣٦ هـ أو ٢٦ مارس سنة ١٨٢١ م ، « وهو الذي سمي نفسه (الباب) بمعنى الوسيلة الموصلة إلى معرفة الحقيقة الإلهية ، وتبعه أناس تلقبوا من أجله بالبابية » (١)

وفرقة (البابية) ظهرت في بلاد العجم ، وهي من أشهر الفرق الإسلامية التي ظهرت في العصر الأخير ، وتميزت بكون أتباعها لم ينحسروا في الشرق والعالم الإسلامي ، بل وجد منهم في أوروبا وأمريكا أيضاً . (٢)

وقد كان السيد محمد علي الشيرازي من الشيعة الإثني عشرية ولكنه بدأ يجمع إلى مذهبه مذهب الإسماعيلية ، واشتغل بالدراسات الفلسفية (٣) ، « وكان مغرمًا منذ نعومة أظفاره بالبحث في الأمور الاعتقادية ، نازعًا إلى النسك ، حتى قيل أنه حمل نفسه على التقشف والتعبد الشاق ، بحيث كان يقعد الساعات الطوال في عين الشمس حاسراً عن رأسه » (٤)

ويروي الأمير شكيب أرسلان أن الباب « زار كربلاء وأخذ عن رجل يقال له الشيخ البحريني ، ولما عاد إلى شيراز شرع يقرأ في المساجد ، ويحمل في الجدال على رجال الدين ، فحال كثيرون إلى مذهبه .. ثم ذهب إلى الحج وأثناء رحلته ألف بعض الرسائل يقال أن أتباعه يعتقدون ما فيها حياً وإلهاماً » (٥)

١/٢ - تعليقات الأمير شكيب على حاضر العالم الإسلامي . ج ٤ ص ٣٥١ وما بعدها (مرجع سابق) .

٣ - عبد القادر شيبه العمدة ، الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة ، ص ٩٣-٩٤ (مرجع سابق) .

٤/٥ - تعليقات الأمير شكيب على حاضر العالم الإسلامي . (المرجع السابق نفسه) .

ومن جملة ما ينسب إليه أنه قال أن علياً هو قبل نبيل ، ونبيل هو عندهم اسم محمد صلى الله عليه وسلم^(١) ، وأنه خرج على الناس بفكرة أنه هو وحده الناطق بعلم الإمام المستور وأنه الباب إليه ، ثم ادعى أنه المهدي المنتظر ، ثم ادعى أن الله قد حل فيه وأنه هو الذي به يظهر الله لخلقه وأنه هو السبيل لإظهار موسى وعيسى في آخر الزمان ، ثم أعلن عدم إيمانه باليوم الآخر وأنكر الجنة والنار ، وذكر أنها رموز لحياة روحية متجددة ، ونحى منحى البراهمة والبوذيين^(٢) .

ثم زعم أنه يجمع بين اليهودية والنصرانية والإسلام وأنه لا فرق بينها ، ثم أنكر أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم خاتم المرسلين ، وأنكر كثيراً من الأحكام الإسلامية المعلومة من الدين بالضرورة ، وقد اطلع الأمير شكيب أرسلان على مؤلف له بالعربية يقول فيه : « إن الأنبياء أولى العزم كلما انقضت شريعة واحد منهم قامت قيامته ، وانتهى دوره ، وجاء دور الآخر كلما انقضت شريعة واحد منهم قامت قيامته ، وانتهى دوره ، وجاء دور الآخر وهكذا جاء آدم ، وبعد آدم نوح ، وبعد نوح إبراهيم ، وبعد إبراهيم موسى ، وبعد موسى عيسى ، وبعد عيسى محمد صلوات الله عليه وعليهم أجمعين ، وبعد محمد الباب مؤسس هذه النحلة المسماة بالبابية »^(٣) .

ويروى أنه ألف كتاباً سماه البيان وزعم أنه كالقرآن^(٤) ، ومن قبلوا هذه الدعوة في طهران الأخوان « ميرزا يحيى نوري » الملقب بعد ذلك « بصيح أزل » و « ميرزا حسين علي نوري » ، الملقب فيما بعد « ببهاء الله » ، وكذلك خاتون اسمها « زرین تاج » ولقبها « قرة العين » كريمة الملا صالح الباراكاني من قزوین^(٥) .

ولما استفحل شأن الباب وكثر أتباعه أجمعت الحكومة الفارسية على استئصال

١ - تعليقات الأمير شكيب على حاضر العالم الإسلامي ، (المرجع السابق نفسه) .

٢ - عبد القادر شبيبة الحمد ، الأديان والفرق (المرجع السابق نفسه) .

٣ - تعليقات الأمير على حاضر العالم الإسلامي ، (المرجع السابق نفسه) .

٤ - وهذا الكتاب بالعربي والفارسي ، وله أيضاً كتاب (بين الحرمين) و (تفسير سورة يوسف) (المرجع السابق) .

٥ - تعليقات الأمير (المرجع السابق) .

شأفتهم ، فقبضت على الباب واعتقلته في قلعة (ماكو) باذريجان ، وأخرجوا (صبح أزل) وأخاه (بهاء الله) إلى بغداد ، ثم أرسلوا إلى أدرنة بالاتفاق بين الدولتين العثمانية والفارسية ، ثم وقع الخلف بين الأخوين ، فأرسلت الدولة بهاء الله إلى قلعة (عكا) ، وصبح أزل إلى جزيرة قبرص . وأما (قرة العين) فإنهم أخرجوها لعهد الباب نفسه إلى بغداد ، وأنزلوها في بيت الآلوسي مفتي بغداد .^(١)

ونفي الأمير شكيب أرسلان ما قيل في شأن (قرة العين) هذه ، وقال إن الآلوسي قال عنها فيما بلغ (شكيب) ، (ماعهدت عليها من سوء) ، وقال أنها كانت تناظر المفتي الآلوسي وتباحثه وتدافع عن مذهبها ، ويروي عن (عباس أفندي) الملقب بعبد البهاء ابن بهاء الله إمام البابية ، وابن إمامها ، أن قرة العين بما أوتيت من الذكاء والفضل ، وسرعة الخاطر ، كانت تعجز المفتي الآلوسي على غزارة علمه ، وزخور بحر فضله^(٢)

وقد أعدم الباب في تبريز في ٢٧ شعبان سنة ١٢٩٦ هـ وفق ٨ تموز سنة ١٨٥٠ م^(٣)

٢ - البهائية :

ينقل الأمير شكيب أرسلان في تعليقاته على حاضر العالم الإسلامي عن الميسو (هوارت Huart) المستشرق الفرنسي في فصل له على البابية في الإنسيكلوبيديا الإسلامية الفرنسية ما أخذه عن (بيان) الباب من تعاليم البابية دون أن يتعرض لهذا الموضوع بجرح ولا تعديل تاركاً عهدته على رواته ، ثم ينقل عنه أيضاً ترجمته (لبهاء الله ميرزا حسين علي نوري) الذي نسب المذهب إليه فيما بعد فليل (البهائية) فقال :

«إنه ولد في نور من بلاد المازندران في ١٢ نوفمبر سنة ١٨١٧ م ، ولما بلغ الثلاثين من العمر اتبع طريقة الباب ، وكان أخوه من أمه ميرزا يحيى الملقب بصبح أزل

قد أخذ بهذه العقيدة من قبل ، ولم يشاهد بها ، الله الباب بذاته لكنه أحبه بالغيب وصار أعظم مريديه بل سبق الجميع في هذه العقيدة ، وشحط الأولين والآخرين في هذه الطريقة الجديدة ، حتى صار عند جمهور البابية هو خليفة الباب ، والمصلي بعد الإمام في المحراب ، وفي سنة ١٨٥٢م أبعدته الحكومة الفارسية إلى بغداد على أثر محاولة أحد البابيين قتل الشاه وتعاظم الفتنة ، فأقام بنواحي السليمانية معزلاً معتكفاً مشيراً إلى أنه هو الرجل الذي بشر بمجيئه الباب في قوله « من يظهره الله » ووضع هناك قواعد الدعوة التي قصد جعلها ديانة عامة ثم نقل إلى أدرنة سنة ١٨٦٤م ، ثم إلى قلعة عكا في شهر أغسطس سنة ١٨٦٨م ، حيث أدركته المنية في ٢٩ مايو (أيار) سنة ١٨٩٢م ، تاركاً خلافته الروحية إلى ولده الأكبر عباس أفندي الملقب عبد البهاء^(١) .

«وأما عقيدته فقائمة بأن لا يؤدي الإنسان أحداً ، وأن يحب الخلق بعضهم بعضاً ، ويتحملوا الظلم بدون مقابله بالمثل ، ولا يشتغلوا إلا بالخير ، وأن يوطنوا أكتافهم ويعنوا بأمر المرض»^(٢)

«والغاية من هذه الحياة هي السلام العام بواسطة هذا المذهب المجرد من الرهبانية والشعائر (التي يقال لها عند النصارى الطقوس) بل كل مدينة يلزم أن تؤسس لها معهداً للإجتماع تجلس فيه لجنة مديرة مؤلفة من تسعة أعضاء يقال لها «بيت العدل» ويكون دخل هذا البيت من التبركات التي لا يوجد لها وارث ، ومن متحصل الغرامات ، ورسم ١٩ في المائة على رأس المال ، يؤدي مرة واحدة لاغير»^(٣)

«وممنوع في مذهبه التقشف والتبتل ، لأن الله خلق الإنسان وأحل له الطيبات من الرزق»^(٤)

«وللبهاء تأليف أهمها «الكتاب الأقدس» (طبع في بمباي وطرسيبرغ) وكتاب

١/٢/٣ - تعليقات الأمير على حاضر العالم الإسلامي (المرجع السابق) ج٥ ص ٣٥٨-٣٥٩ .

٤ - المرجع السابق ، وقد نقلنا هذا النص لنظهر جهود المستشرقين في إبراز هذا المذهب وعنايتهم بترجمته وعرضه على أوسع نطاق .

«الإيقان» (ترجمة دريفوس وحبيب الله الشيرازي في باريس سنة ١٩٠٤) وطرقات كلمات فردوسية وإشراقات وتجليات (ترجمت في قواعد البهائية سنة ١٩٠٦م) «وكلمات مكنون» (مطبوع بباريس سنة ١٩٠٥) و «دروس عكا» التي جمعتها ما دام كليفور بارنادي ... و «النور الإلهي» (مطبوع بلندن سنة ١٩٠٨) ترجمة عن الأصل الفارسي المسمى دريفوس ...»

«ولدريفوس المذكور كتاب على البهائية وتاريخها وأثرها الاجتماعي وقد ذكرها (براون) في كتابه «سنة بين العجم»

ويعلق شكيب أرسلان على النصوص السابقة بأنه نقلها عن المستشرق هوارت بدون زيادة ولا نقصان، والعهد في كل ذلك عليه وعلى من نقل عنهم^(١).

ولكن الأمير يعود فيقرر «أن البهاء وأولاده بمقامهم هذه المدة الطويلة بعكا أصبحوا بأشخاصهم معروفين لدى أهالي بلادنا المعرفة التامة ، بحيث صفا جوهرهم عن أن تعتوره الجهالة ، وامتنعت حقيقتهم عن أن تتلاعب بها حصائد الألسنة»^(٢)

ويؤكد الأمير شكيب أن البهاء في فترة إقامته (بعكا) كان يقضي وقته معتزلاً معتكفاً ، وأنه ما اطلع له أحد على سوء ، ولا مدعاة شبهة في أحواله الشخصية كلها ، ويروي (شكيب) أنه عرضت خصومة بين ولد البهاء (عباس أفندي) وبعض المتمولين على حدود أرض فوصلت إلى المرافعة فكتب البهاء إلى ولده : «يا عباس اتنازعون وتترافعون على حفنة تراب ؟» فترك عباس الدعوى من فوره^(٣).

أما أولاد البهاء فكانوا أربعة السادة عباس ، ومحمد علي ، وضياء ، وبديع الله ، وفي عام ١٩٢٢م انتقل إلى الدار الآخرة عبد البهاء عباس ، وقد ذرف على الثمانين^(٤).

١ - المرجع السابق ، وقد نقلنا هذا النص لنظهر جهود المستشرقين في إبراز هذا المذهب وعنايتهم بترجمته وعرضه على أوسع نطاق .

ولقد بالغ الأمير شكيب كثيراً في مدح مزايَا عبد البهاء عباس أثناء تأبينه له ، وأشار في معرض ذلك إلى مسألة خطيرة ، وهي مرافقة نحو مائة وخمسين شخصاً من أتباع طريقة البهاء من الإيرانيين البهاء وأهله في مناهم في عكا ، وليس فيهم إلا صاحب صنعة أو عمل ، وقد هجروا أوطانهم حبا بجوار البهاء وأولاده ، وكان عباس أفندي يكتنفهم بظله ويتعاهد جميعهم بفضلِه .^(١)

ويذكر شكيب أرسلان أنه اتصل بعبد البهاء عباس أثناء إقامته في عكا ، وجمعت بينهما صداقة ومودة ، حاول شكيب أن يستثمرهما من أجل أن يتعرف على حقيقة العقيدة البابية ، وصحة ما ينسب إليها ، فقصده عكا مراراً ولا غرض له سوى الإستماع إليه ، وسؤاله عن حقيقة مذهبه ، يقول شكيب :

«ودأو رته مرة على الكلام في موضوع العقيدة البابية بدون أن أسأله عن ذلك رأساً ، بل كنت أجيء إليه من باب المعارض استطرافاً ، وأحاول أن أحمله على هذا البيان استطراداً ، فسألته عما إذا كان من الممكن تمثيل الصفات الإلهية في أحد البشر بدون تصريح ، إلى ما يقال من كون الباب أو البهاء هو مجلي الصفات الربانية على الأرض ، فأجابني بأن الصفات معان ، والمعاني لا تتجسم ولا تتشخص ، وأن المجردات لا تتجسد ، وأفاض في هذا الموضوع بالنفي وتبيين وجوه الإستحالة ، فأجبتني : « فلماذا يقال إذاً أن بعض البشر يمثلون الصفات الألهية على الأرض أو أنهم مظهر الألوهية في الخلق ؟ » فقال لي : « ليس الأمر كذلك ولكن الحديث يستفيض من القديم بقدر استعداده » وكررها : « بقدر استعداده ، بقدر استعداده » ففهمت من هذا أن مقصودهم هو كون بعض النفوس مستعدة للكمال أكثر من سواها ، فهي تقتبس من النور القدسي بقدر صفاتها ، وأن هذا مبلغ عقيدتهم في الباب أو البهاء ، أو مبلغ عقيدة عباس أفندي نفسه ، الذي كان فيلسوفاً متكلماً فلا يمكن أن تكون عقيدته عقيدة العوام من البابيين »^(٢)

ويتذكر شكيب أن عبد البهاء عباس كان يشرح مرة عقيدة القضاء والقدر فقال له شكيب : «إلا أن هناك من يقول في التعريف ما هو كذا وكذا» فقال عباس : «هؤلاء هم العوام» فقال شكيب له : «كلا بل من العلماء من يقول هذا» فقال : «والعلماء فيهم عوام أيضاً» . (١)

وأخيراً فإن شكيب أرسلان يرى أن من واجب المؤرخ أن يثبت أنه بعدموت (بهاء الدين) وقع الخلف بين أولاده عبد البهاء من جهة ، ومحمد علي أفندي ، وضياء أفندي ، وبديع الله أفندي ، من جهة ثانية ، وكانت دعوى عبد البهاء أن إخوته نفسوا عليه الرئاسة وهو أحق بها وأولى ، ودعوى إخوته أنه خالف وصايا والدهم في كثير من الأمور ، مما جعل النفرة والجفاء يتمكناً من قلب عبد البهاء نحو إخوته ، حتى بعد أن سلموا له ، وما زال على الصرم والهجران حتى توفاه الله ولم يعقب ولداً ذكراً ، فلم يستخلف أحداً من أخويه الباقيين ، وفضل عليهما حفيده من أولاد بنته فوقه الخلاف أيضاً بعد موته ، وانقسمت الفرقة البهائية إلى قسمين : منهم من يتمسك بوصية عبد البهاء ، ومنهم من لا يرى له حقاً في ذلك ، ويوجب إنتقال الزعامة إلى أخيه السيد محمد علي أفندي . (٢)

١ - تعليقات الأمير علي حاضر العالم الإسلامي (المرجع السابق) ج٤ ص ٣٥٩-٣٦٠ .

٢ - تعليقات الأمير علي حاضر العالم الإسلامي (المرجع السابق) ج٤ ص ٣٦١ .

نقد موقف الأمير شكيب أرسلان من البابية والبهائية

الدعوة البابية أو البهائية هي دعوة قديمة مجددة شكلتها أصول متعددة من الفكر الوثني والفكر التلمودي اليهودي والفكر المجوسي ، وهي واحدة من الدعوات التي ظهرت في إبان الإستعمار البريطاني بهدف إسقاط فريضة الجهاد أو تعطيلها ، وقد دخل يهود إيران هذه الحركة وحولوها وجهة متصلة بالماسونية ، وتحاول البهائية نشر دعوة وحدة الأديان بالخروج عن أصولها للدخول في دين جديد ، يقول بالسلام العام وتوحيد لغات العالم ومساواة الرجل بالمرأة ، واعتبار العبادة هي العمل .^(١)

ولقد بنى الأمير شكيب أرسلان موقفه من البابية على التشكك فيما نسب إليهم من عقائد ، وكان يقول «إننا تعودنا من أهل الفرق الكبرى شرقاً أو غرباً وفي الإسلام أو في النصرانية ، أنه كلما خرج عليهم خارج رموه بكل عضيته»^(٢) وذلك لأن «إختلاف العقيدة يورث التباغض والتنافر ما ينتهي بوضع أخبار كثيرة لا صحة لها وترويجها بين الناس حتى تكاد تصير قضية مسلمة»^(٣) لذلك سعى الأمير شكيب إلى التعرف على العقيدة البابية بنفسه من إمامها عباس أفندي الملقب (بعبد البهاء) كما بينا ، وقد يكون الأمير محقاً في منهجه في البحث عن الحقيقة وفي ترثته وتثبته قبل حكمه على إحدى الفرق التي تنسب إلى الإسلام ، ولكن هذا المنهج هو محل نظر إذا كانت هذه الفرقة تنسب إلى الفرق الباطنية التي قد يظهر أتباعها غير ما يعتقدون لإيمانهم بالتقية والقول بالباطن .

ويعلق الأمير شكيب على الفتنة التي أحدثتها الدعوة البابية في العالم الإسلامي ، ومواجهة كثير من الباحثين لها ، وكشف زيفها فيقول : «أما من جهة تعاليم البابية فقد اختلفت الأقوال كثيراً ، وطعن فيها أناس كثيرون ، من جملتهم السيد جمال الدين الأفغاني ، ولعل وجه الطعن فيها هو بروزها بشكل شرعية جديدة ، حال كون الشرائع

١ - أنور الجندي ، محاولة لبناء منهج إسلامي متكامل ، مج ٥ ، ص ٣٩٣-٣٩٤ .

٢ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ج ٤ ص ٣٥٢ (مرجع سابق) .

٣ - المرجع السابق نفسه ، ج ٤ ص ٣٢٨ .

كلها قد ختمت بالرسالة المحمدية ، فأما إذا تلقاها الإنسان على شكل وصايا وعزائم ، كما هو الشأن في الطرق الصوفية المتعددة ، فإنه يجد فيها كثيرا من الآداب السامية ، والمبادئ المعقولة» (١)

ولكن البابية لم تكن مجرد آداب ومبادئ معقولة فهي تدعو إلى وحدة الأديان وتدعو إلى وحدة الأجناس والشعوب ، وتحاول التبشير بعصر جديد يشرق على البشرية ، وهذا هو جماع ما حملته بروتوكولات صهيون ، ولا ريب أن كل دعوة تدعو إلى وحدة الأديان والأجناس إنما تحاول هدم الإسلام لأنه الدين الوحيد الذي يراد له أن يتدمج وأن ينصهر وعالمية الأديان لا تستهدف إلا القضاء على عالمية الإسلام (٢) ، وهذه المعاني كلها مستمدة أساساً من التلمود ، وأبرز معاني البهائية إسقاط فريضة الجهاد وهي دعوة حين تنشر بين المسلمين لا تفيد منها إلا الصهيونية العالمية التي تحرص على كلمات (الحرية والمساواة والإخاء) (٣)

والبهائية في أنظمتها أقرب إلى الماسونية وقد وجدت مناخها في كل المناطق التي ضعفت فيها يقظة الإسلام ، فقد استوطن البهائيون تركيا ، وعكا ، وحيفا قبل الحرب العالمية الأولى ، وكان لذلك أثره البعيد في إنشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين (٤)

ويقول شكيب : «ولسنا نعرف بالتدقيق عدد الفرقة البابية ، فمنهم من يقول أنهم زهاء مائة ألف نسمة في العجم ، ومنهم من يقول بل ١٥٠ ألفاً ، ويقال أن منهم بالهند ، ومصر ، بين الإيرانيين المقيمين بهذه الحاضرة ، ومنذ نحو ٢٠ سنة أخذنا نسمع أن هذا المذهب انتشر بأمريكا ، وأنها قد ترجمت عقيدته إلى الإنجليزية ، وأخذ بها أناس كثيرون» (٥)

١ - شكيب أرسلان ، المرجع السابق نفسه ، ج ٤ ص ٣٥٤ .

٢ - أنور الجندي ، محاولة لبناء ، (مرجع سابق) .

٣ - د. مصطفى حلمي ، الإسلام والأديان ، ص ١٧٢ .

٤ - أنور الجندي ، محاولة لبناء ، (مرجع سابق) .

٥ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي (مرجع سابق) ج ٤ ص ٣٦٠ .